رواية

أشجان البلدة القديمة

أحمد ضحية

2016

فهرسة المكتبة الوطنية اثناء النشر – السودان
9624.813 أحمد محمد ضحية أحمد، 1971م
أم . أ
أشجان البلدة القديمة (رواية)/ أحمد محمد ضحية أحمد – الخرطوم:
مدارات للطباعة والنشر،2016.
200 ص؛ 24 سم
ردمك: ISBN:978-99942-70-66-8
رقم الايداع: 2016/698م
1. القصص العربية– السودان. أ. العنوان

الناشرون: مدارات للطباعة والنشر والتوزيع 2016
ســـناء ابوالقاســـم ابوقصيـــصة
الخرطوم ش الجمهورية تقاطع عثمان دقنة
تلفونات: 00249912893971 -24912855588100
Madarat009@gmail.com

لوحة الغلاف للفنان عبدالله محمد الطيب
التصميم الداخلي والغلاف: معمر مكي عمر

إهداء..

إلى أصدقاء قدامى،

ذاكرة عتيقة.. وبوح قديم،

أحمد

1

أين تبدأ الذكريات و الأحلام، وأين ينتهي الواقع ؟! وكيف ينهض كل هذا الشجن من بين ركام الماضي واللحظات الحائرة، في الراهن الملتبس؟...

يتفرس عجبين خشم الموس الوجوه الأربعة التي يمر بها كل يوم في طريقه.. يتفرس موقعها في ذاكرته. يبحث عن هذا الموقع ليجده مقصيا بعيدا. أقصى تلافيف ذاكرته، فينقب في كل وجه.. كأنهم هم.. اصدقاؤه القدامى، وربما ليسوا هم !!..

يدخل الحمام. يأخذ دشا باردا. يضع براد الشاي على البوتجاز. يرتدي ملابسه. يرتشف الشاي بتلذذ. يحمل المطرقة، ويحاول غرس المسمار على الجدار المقابل، ليعلق مرآة الكرسني المشروخة، أعلا تمثال « نوار»الرخامي المتآكل.. ينثني المسمار من الطرق المتواصل، دون أن ينغرس عميقا في الجدار الصلب..

يخرج شاقا الدروب الحائرة. النعسانة. المصابة بالوسن..

يسحب نفسا عميقا من هواء الصباح المشبع بالبرودة والندى.. ويسند رأسه على ذكريات رطبة، لكنها قديمة، مشبعة برائحة العطن..ربما هي أحلام يقظة، تخرج من أعماق الماضي، أو أوهام تنبثق من فضاء الذاكرة، تحمل

على سـواعدها المتشعبة وجوه أصدقائه القدامى: الأربعة ذاتهم، المعجونين في المشاعر المتناقضة، والإنكسارات والتشظي..

يراهـم كأنه يجلس جوار نافذة لقطار مسـرع، تمر وجوههم على رصـيفه، كمحطات فارقة في مسـيرة حياته العامرة بالشـجن، في اللحظات التي يخيم فيها صـمت عابر على فضـاء ذكرياته، كانوا بوجوههم الأربعة: عاصم، أيمن، عثمان وحسنين التائه، ينقبون في هذه الذاكرة المنهوبة. يتركهم غارقين في هذا الصـمت، يراقبون المارة بين آن وآخر من مكانهـم الذي أعتادوا الجلوس فيه، في هذا الجزء من أطلال البلدة القديمة. تحت الجدار الخارجي للبيت العتيق.

يتبادلـون أحاديث الحزن والأسـى في الامسـيات التـي تلت جنون صـديق عمرهم. شـريك ذكرياتهم. نديم كأسـهم: عجبين خشـم الموس، الـذي منذ عـاد من غربته الطويلة، لم يكن بحالته التـي فارقهم عليها آخر مرة، قبل سنوات طويلة.. قبل أن يختار الغربة ملاذا..

كانوا كلما جلسـوا يتسـاءلون عمـا آل اليه حاله: هـل كان جنونه أثر رجعي لتجربـة الاعتقال والتعذيب أم أنه خيار شخصـي أتخذه من عالم الواقع.. هـذا العالم المليء بالحروب الأهلية والفقر والتهميش، أم بسـبب مأزق وجودي نسـجته حوله أفكاره المثالية، فتاه بين ماهو متحقق فعليا وبين ما يريده هو أن يكون !.. أم كان جنونه بسـبب كل هذه المخاوف والظنون، إزاء سـرطانات العصـر والامراض المصـنعة، التي أحالت حياة الناس الى رعـب مزمن، أم أن جنونه كان بسـبب كل تلـك الحكايات العجيبة، التي نسجت حول آل خشم الموس ؟!..

في إعتـزالات عجبـين المتكررة للناسـ، كانت تخطر علـى باله دائما، الحكايا التي حكمت حياة جده الكرسـني، فيتساءل ذات الاسئلة في كل مرة: هل غرابة الأطوار هي جزء من جينات آل خشم الموس، أم أن الجنون كالقدر «مكتوب» ؟!..

عـبر عجبين خشـم الموس أمـام أربعتهم. وقف قبالتهـم. حدق فيهم مليـا، ومضـى غارقا في تخيلاته وأفـكاره الممعنة في الرهـق.. حيث يجيئه الآن ناهضـا من قلب العبور صـوت موظف الامم المتحدة لشئون اللاجئين مـن بعيد كأنه يخرج من غياهب غابة خشـم الموس الكبير. خلف حديقته مترامية الأطراف. من قلب عتمتها، التي ظلت تحاصـر حياته وتهيمن عليها بالأخيلة وأشباح اليقظة..

أستاذ عجبين حدثنا عن الأسباب التي دفعتك للجؤ؟!.

أطرق عجبين وهو يحسر بصره عن جهاز الكومبيوتر الذي كف الموظف البدين عن التلاعب بمفاتيحه.

– تعرضت للاعتقال والتعذيب النفسي والجسدي والتهديد بالقتل.

– لماذا؟.

– لأنشطتي المعارضة.

– لكنـك ذكـرت في طلبـك بالتحديد عبـارة «أشـعاري الثورية هي السبب» ؟!..

– ذكرت أنها أحد الاسباب.

– صف لنا أول إعتقال لك.

– تم إعتقالي للمرة الاولى لمدة اسبوع من ظهيرة 27 سبتمبر حتى العاشر مساء 3 أكتوبر 1989. قاموا بتفتيش مسكني ومصادرة كل كتبي ودفاتري. ضربوني بالأيدي و الأرجل وخراطيم المياه.

– ماهي الأسئلة التي وجهت إليك ؟

– حققوا معي حول نشاطاتي وانتمائي السياسي، وسألوني عن بعض الشخصيات التي أعرف بعضها وبعضها الآخر لا أعرفه. تعرضت للضرب المبرح وإزلال لا مثيل له. تعرضت لارهاب نفسي حاد، وحرمان من النوم...

.. البلدة القديمة مثل جرح «ينقح» في داخله. يخز وجدانه. يتفتح على كل العوالم التي لطالما حلم بنسيانها.

سماء البلدة القديمة مرآة كبيرة، صاغ منها خشم الموس الكبير مرآته السحرية، التي انتشرت شظاياها في ملامح الناس والأمكنة.. مرآة تعكس ما يمور به عالم الأفكار خلفها، ليتبدى انعكاس فكرة البلدة القديمة.. هذه الفكرة الهائمة.. تتبدى آخذة وجودها الحسي الملموس هنا في هذه الجغرافيا، عند مقرن النيلين،. حيث تبدو واضحة المعالم بناسها وحواريها وأزقتها وجغرافيتها وكل ما تشتمل عليه من وقائع وأحداث عبر الزمان والمكان..

تخـرج البلدة القديمة عـبر الانعكاس من واقع الفكـرة التي كانتها في عالم الأفكار، لتسـتمد أحاسيس النهوض من المشاعر الحبيسة في البرزخ، لتحل في وجه (هناء – نوار) و (ليلى – العينة) كطاقة حب فياضـة تجب كل ما عداها. طاقة تجرف أمامها الحزن وذكرى سنوات الجراحات التي ظن أنها لن تنقضي..

راقتـه وقتها فكرة جندي القداحة كثيرا، فتمناها وهو يتصـور « كلاب القداحة السحرية « بعد أن تقتل الحراس، فيتزوج هناء ويصبح عمدة البلدة القديمة، بدلا عن والدها العمدة الكبير..

لكن الأمور مضت بصورة أكثر يسرا، فبعد طول انتظار، بدأت هناء ترد على رسائله الحارة، ثم أصبحا يلتقيان خلسة، ولم تمض سوى أشهر معدودة حتى أصبح يجيء بها إلى غرفته التي أجرها، في ذات البيت الذي أجر فيه عاصم و أيمن غرفة لهما.

كان انتحـار هناء أحد أكـثر انعطافات حياته حدة، إذ تملكه إحسـاس شـديد بالحزن، واغتم غما شديدا.. أصبح كشـبح هامد.. شاحب لا يكاد يستطيع التنفس. كأن صخرة عتية تجثم على صدره. أصبحت أحلام يقظته محاصرة بشبح الموت، كأن الموت يتقدم تجاهه بسيف من النار، حوله رؤوس مشوهة، تتفحصه بنظرات غاضبة..

وهكذا مضـت حياته تتقلب في الحزن والوهن، الى أن أطل تغريد طائر الجنة الملون من نافذة غرفته.. يتسلل لحنه العذب هادئا، يستعيد الى ذاكرته

كل عوالم البلدة القديمة، في ذلك الزمن المنسي منذ عشرات السنين. لأول مرة يسمعه منذ تلك السنوات البعيدة، عندما كان هنا في هذا المكان، بيت خشم الموس الكبير، وغابته وحديقته المميزة.. عندما كان المقرن هو المقرن وليس شيئا آخرا.

كان طائر الجنة الملون حاطا على شجرة السنط خارج الدار، ينظر إليه عبر النافذة المواربة، يتحسس بلحنه المميز عذاباته وآلامه وأحزانه.. يمزجها في لحن طويل، فيمتص عجبين اللحن العذب بكل جوارحه. يسري عنه. يبعث فيه الأمل من جديد، تذوي صور الأشباح التي تهيمن على أحلام يقظته، وتسري في جسمه حيوية لم يشعر بها منذ زمن بعيد.

غناء طائر الجنة الملون يبعث الحياة حتى في فناء الدار المجدب، فتخضر حديقتها، وتنتاب المكان.. كل المكان، حالة من الصفو، فيشعر بإشراقة الشمس وضوئها، الذي يتسلل النافذة، لأول مرة منذ انتحار هناء شعورا مختلفا.

كان كأنه يفيق من نوم عميق، هذه اللحظة من التجدد والإحساس بالحياة من جديد، لم يشعر بها مرة أخرى إلا عندما التقى (ليلى – العينة) في ذلك اليوم في جراج العتبة.

كان وقتها في طريقه الى مفوضية اللاجئين، عندما جلست إلى جواره في الميني بص. تبادلا أطراف الحديث.. كانت بطريقها أيضا الى مكتب المفوضية..

- لكنني لا أعرف في المهندسين موقعه بالتحديد.

- لا تخش شيئا، انا اعرف موقعه.

وعندما وصــلا الى المكتب، انتحيا قريبا من المدخل، إلى أن يقل زحام اللاجئين.. أحس بها تســتعيد في داخله ذكرى منصرمة. ذكرى هناء التي أحــب من كل قلبه. بدت لــه مألوفة مثلها. هادئة وعذبة ووحيدة كشــجرة نخيل في مهب الريح. لم يشــعر بالزمن يمضــي، وهما يتعرفان الى بعضهما أكثر فأكثر، كأنهما صديقين قديمين. التقيا بعد طول بعاد، وأخذا يستعيدان كل ما كان بينهما ذات يوم، بحميمية وشــغف الذكريات التي لا تخلو من ندم شفيف، كجرح هاديء العذاب. نبهه موظف الأمن:

- دورك يا أستاذ.

- آه، نعم. أرغب في ملء استمارة تحديد وضع اللاجيء.

- وأنت ؟

- لدي مقابلة اليوم.

وعندما حان وقت مقابلته لموظف المكتب، للبت في قضــيته التي تقدم بها، للحصــول على حق الحماية الدولية، قــادوه الى الطابق الاعلا، حيث تجــرى المقابــلات، أدخلوه مكتب واســع. جلســ إلى الموظــف الذي كان منشغلا بجهاز الكومبيوتر أمامه. باغته الموظف:

- إسمك ؟

– عجبين خشم الموس ؟

– الديانة ؟

– مسلم. لكن..

قاطعه:

– مكان وتاريخ الميلاد؟

– الأول من نوفمبر 1960 البلدة القديمة.

– الحالة الاجتماعية ؟

– عازب ولا أنوي الزواج على الإطلاق.

– عنوانك في مصر ؟

– 27 ش قولة مع محمد فريد – عابدين

– رقم الهاتف 01239490

– رقم وثيقة السفر ونوعها؟

– 00489460 باسبورت.

– وضعك الحالي، كيف تصفه ؟.

– لاجيء.

– هل تتحدث الإنجليزية وتكتبها بسهولة أم بصعوبة ؟

– بسهولة.

– اللغة التي تفضــلها لإجراء المقابلة معك. العربية أم لغتك المحلية أم الانجليزية ؟.

– لغتي المحلية أو الانجليزية.

– خــذ إملأ هذه الإســتمارة ووقع عليها وتذكــر أن أي معلومة بغرض التضليل ستعرضك للمساءلة وثق تماما أن كل ما تذكره سيتم الحفاظ عليه بسرية تامة.

تأمل عجبين اســتمارة التماس اللجوء من تحت الضباب الذي يتبدى عن الملامح الغامضة للبلدة القديمة..

كان الزمن يتســحب في هذا في هذا الضــباب مثل ضــل الضحى، لا يمكنك الشــعور بتســحبه. الا عندما تجد نفســك فجــأة في «الحر». تتلفت خلفك. ترى الظل. مجرد شــريط ضيق. شريط لا يزال يتسحب هو الآخر مفســحا لما يطلق عليه « الذكريات».. دون أن تكون واثقا أهي ذكريات حقا أم وقائع وأحداث ســتأتي، أم هي ذكريات لشخوص آخرين، ربما لاتعرفهم تماما ..

كل شــيء يختلط في ذهن عجبين خشــم الموس، كأنــه يرى وجهاً في الطريــق العام ويظن أنه يعرفــه على الرغم من أنه لم يــره من قبل.. للمرة

الأولى يـراه، هـذه هي « لعبة الذكريات « في ذاكرة عجبين خشـم الموس، كل ما مضـى يختلط بما يجري وبما هو آت، ليتشكل في هذا المزيج وجهين: وجه هناء – نوار، و ليلى – العينة.

الحكايـات التـي لازمت حياة الأجيال المختلفة من أسـرة آل خشـم الموس، هـي حكايات البلدة القديمة حولهم. فهناك عند الضـفة الشـرقية للنيل، وجوار مقرن النيلين تماما، تنهض البلدة القديمة، حيث الماء سـماوي اللون، لا تشـوبه عكرة اندفاع النيـل الأزرق، وحيث يقل عمق النهر كلما اقترب من الضـفاف، وحيث كلما أقترب أحدهم من المقرن تتضـح لرؤيته تلك الملامح الغائبة خلف ضـباب المغيب.. ملامح البيت الكبير الشـبيه بقصـر اسـطوري. ذلك البيت الذي شيده خشم الموس الكبير، من الطين اللبن والطوب المحروق، دون أن يبدو عليه أنه كذلك. اذ صـاغ جدرانه من المرجان الزائف، والزجاج الملون،. وصنع نوافذه العالية من الأبنوس والعاج، وجعل لحجراته أسـقفا من تيك الجنوب الحر، الذي تخللته أصداف البحر الأحمر البعيد.

عندما تمر تيارات الهواء الباردة أو أشـعة الشمس الهادئة، كانت كوات المنزل الملونة تفتح لوحدها.

النظام الهندسـي الدقيق، الذي شـيد عليه خشم الموس بيته الكبير، ظل غامضـا. وأكثر ما كان يثير التساؤل هو: كيف يضيء هذا المنزل الذي شـيدت جدرانه الداخلية من المرايا. من أين ينبعث هذا الضوء الذي يملأ حجراته وأبهاءه الفسيحة.

أمام هذا البيت الكبير كانت هناك حديقة كبيرة، حافلة بأشجار حمراء بلون النار، وزرقاء ممعنة في زرقتها، تتألق أوراقها مثل الذهب، وتشبه أزهارها شمسا ساطعة ملتهبة.

وكان تـراب الحديقة ذا لـون أزرق براق. لون لا مثيل له، في كل أنحاء البلاد الكبيرة. وعندما تكون مياه مقرن النيلين ساكنة تماما، تصبح الشمس أشبه بزهرة أرجوانية اللون، يتدفق من كأسها ضوء العالم.

هـذه الحديقة هي إمتداد كبير، يصـل حتى الغابـة، عند التخوم التي تفصـل « الفتيحـاب بالنيل. في هـذه الحديقة كان خشـم الموس لفترات طويلة، كأنه يغرق في تأملات أو صلوات سرية عميقة. يفعل ذلك كل يوم، قبل أن يواصـل سـيره الى الغابة، حيث يقف تحت شجرة السنط العجوز، ليروي مسامعه بغناء طائر الجنة الملون.

شـاع بين سكان البلدة القديمة، ان كل من يتجاوز نهاية حديقة خشم الموس، يصـل الى هذه الغابة الجميلة، ذات الأشجار العالية التي تتدلى الى حافة النيل، الذي يتضاءل عمقه عندها وتصبح مياهه شديدة الزرقة، حيث تبحر المراكب الشراعية وهي تكاد تلامس الأغصان.

في قلب هذه الغابة نهضـت شجرة السنط الوحيدة، التي سكنها طائر الجنة الملون، بجسمه الضئيل وصـوته الرخيم العذب، الذي يترع القلوب بالحنين. حتى أن الصـيادين الذين يطرحون شـباكهم ليلا في النيل، كانوا عندما يسـمعونه، يقفون بخشـوع، وما أن يجذبوا شـباكهم، حتى يجدونها

أمتلأت بالسـمك الضـاحك، الذي يبدو كأن الابتسـامة لم تفارق وجهه أبدا !!..

حول بيت خشـم الموس وحديقته والغابة الكبيرة التي يفصلها النيل عن الفتيحاب، نسـج أهالي البلدة القديمة حكايات عديدة. تناقل بعضـها أحفاد خشم الموس الكبير بعد عشرات السنين..

تزعم هذه الحكايات، أن آل خشـم الموس من سـلالة حوريات النيل، اللائـي كان أهلهن يرمون بهن الى النيل قربانا للخصـب والنماء. خرجت من بينهن الحورية نوار، ذات ليلة مقمرة، ووجدت خشم الموس جالسا عند قيف المقرن. من نوار أنجب خشـم الموس الكبير إبنه الوحيد « الكرسـني « الذي تحدرت من صلبه ذرية بعدد الرمل في قبضة الجاروف !!..

تضـاربت الحكايات حول نوار، لكنها أتفقت جميعها، على أنها ماتت بعد ولادة الكرسـني بقليل. ومثل موتها المفاجيء كارثة على حياة خشـم الموس، إذ أغلق بيته دون الناس، وأصبح معزولا عن البلدة، حيث أصبحت حياتـه، كل حياته تتمحور بين رعاية الكرسـني، وغرفـة مخطوطاته وأوراقه حائلة اللون، التي يحبس فيها نفسه لوقت طويل.

عندما كبر الكرسـني قليلا. لم يكن خشـم الموس يسمح له بالخروج بعيدا، عن حدود البيت والحديقة، وكان الكرسـني يتوق لأن يكبر سريعا، ليفلت نفسه من حصار هذه الوحدة والوحشة، التي لا أنيس له فيها، سوى صـوت طائر الجنة الملون، الذي يأتيه تغريده هادئا في المساءات والصباحات

الباكــرة. كان تغريده ســاحرا يأتي من البعيد. من أعمــاق الغابة التي تمتد أمام الحديقة. وعندما يسمع صوته العذب، تترقرق دموعه حتى تسيل على خديه، إذ يمس صــوت طائر الجنة الملون شــغاف قلبه، مستعيدا الى مسامعه غنــاء والدته، عندمــا كان بعد لا يزال في رحمها وهدهدتهــا له عندما كان وليدا في المهد.

وعندما يصــمت طائر الجنة الملون في الصــباحات مع إطلالة الشمس، ينهض من سريره ويمضي الى الحديقة ليلهو برعاية الورود والأزهار..

في لحظات نادرة يهتم خشم الموس بمحادثته، عن العالم حوله في البلدة القديمة، ثم لا يلبث أن ينســحب الى غرفة المخطوطات، ليحبس نفســه فيها حتى إنقضــاء اليوم، تاركا الكرســني لوحدته المعذبة مرة أخرى، فلا يجد الكرســني أمامه سوى أن يشغل نفسه بالأزهار والورود التي حوله، محاولا زرعها في كل مكان من ارض الحديقة الكبيرة.

ذات صــباح بعيد وبينما كان يحفر في أرض الحديقة، أصــطدم معوله الصغير بشيء صلب، فنبش المكان حوله..

كشف عن تمثال صــغير.. تمثال رخامي لإمراة جميلة، أحس بها تشبه أمه نوار، التي تركته وراءها لليتم.

وضع الكرسني التمثال في قلب الحديقة وزرع جواره « شتلة « نيم.

نمت شــتلة النيم الى شــجرة كبيرة. نمت بســرعة، متكاثفة الأغصــان، متدلية بالوان قوس قزح.

نشـات بينه وبين الشجرة علاقة حميمة. كان كثيرا ما يشعر بها، كأنها تتحدث بلسـان التمثال الرخامي، عبر همسات أغصانها وحفيف أوراقها. كأن الأفكار والصـور والأخيلة، تنبعث منها الى رأسـه مباشـرة، تحدثه عن الغابات والنيل والصحراء الشاسعة، والبحر البعيد:

« عندما تصـل سن البلوغ، سيسـمح لك خشم الموس بالإقتراب من عالم البلدة، وعندئذ سـتجلس تحت ضـوء القمر على ضـفة المقرن، تنتظر حبيبتك الجميلة، وترى كل شـيء يسير الى جوارك، وتتعلم كيف تميز بين الناس والناس «..

تقول له أمه الشـجرة.. فيزداد توقه إلى التحرر من عالم البيت الكبير، والحديقة وغابة خشـم الموسـ، والى عالم البلدة الغارقة في الوسـن يرحل بخياله..

في الليالي شديدة الحلكة كان يقف، خلف نافذة حجرته، يرمي ببصره إلى البعيد، ويفكر فيما ينتظره، عندما يخرج من قلب بيت خشم الموس الى عالم البلدة القديمة.

مر الزمن بطيئا ومتثاقلا، الى أن وصل الى السن التي تمكنه من التحرر من عالم خشـم الموس، فخرج في ليلة مقمرة، يتجول على ضـفاف المقرن. جلس على الشـاطيء، وتطلـع الى البلدة التي تقع على السـاحل، حيث كانـت أضـواء القناديل تلمع مثل نجـوم تتناهش ذؤاباتهـا الريح الهادئة. والموسيقى تعزف في « ريفيرا «

الموردة و» القراقير « يضجون بالغناء.

كانت الضــجة التي يصــدرها الناســ والعربات تبدو لــه بعيدة، كانها تتناهــى إليه من حدود الكون. تردد في الاقتراب من ذلك العالم. حســم قراره، وعاد إلى البيت الكبير. كان بعد لا يزال اســيرا لعالم خشــم الموس، الموحش بوحدته المعذبة، وغموضــه الذي لا حد له، غموضــه الذي يبعث على الأحاسيس المتضاربة:

عندما دخل البيت وجد خشــم الموس ينتظره بقلق في البهو الواســع. نظرا إلى بعضــهما في صمت. لم يجرؤ أحدهما على قطعه. ثم أنسحب كل منهما إلى حجرته.

ثمة حكايات عديدة حاصرت آل خشم الموس، بعد عشرات السنين. تزعم أحداها أن الجد الكبير « خشــم الموس « إنما هو ابن أحد أمراء المهدية الذين نبذوا في عهد الخليفة التعايشي، بعد نجاته من معركة توشكي. بسبب جرأته التي كان يبديها ضــد الخليفة. هذه الجرأة التي لازمت حياة خشــم الموســ من دون كل الأمــراء، إذ لم يكن يطع للخليفة أمرا، وقد ســيطرت عليه ذكرى رفاقه الذين قضــوا في توشكي. كان اقصــاؤه عن الحياة العامة جندا أساســيا للخليفة وأعوانه من الغرابة، لكن ليس لهذه الرواية أي سند تاريخــي موثوق، مثــل كل الروايات التي تم تأليفها من قبــل أولاد البحر، لإضــعاف إرادة الحكم الرشــيد في الخليفة، تمهيدا لإستيلائهم على سلطة الدولة، لإدارتها لصــالح مجموعتهم الشريفة، التي جاءت على ظهر النوق من جزيرة الربع الخالي، كما يزعم مؤرخي آخرؤ الزمان.

الحكاية الرسمية التي تناقلتها أجيال الأسرة، حول إنقطاع خشم الموس للعبادة، بعد تكوينــه لثروة كبيرة من الإتجار في الرقيق، أكثر معقولية، لكن ثغرتها الأساسية تكمن في أن خشم الموس لم يكن «فقيرا» بالمعنى الفقهي، إذ كان جل اهتمامه منصب على السحر والخيمياء، وهكذا يصعب التأكيد على أن انقطاعه كان للعبادة، كما أشاع أولاد البحر.

تمكن خشــم الموس من صــنع مرآة ســحرية يمكنها أن تجعل كل ما هو جميل يتضاءل الى لا شــيء. بينما كانت الأشياء القبيحة عندما تنعكس على ســطحها تتضــاعف وتتمدد، بصــورة مرعبة، كما أن كل جميل على سطحها يبدو مسخا مشوها ومرعبا. كما لو كان واقفا على رأسه دون جسد، بملامح مبتسرة، حتى أن أقرب الأقربين إليه لا يمكنه التعرف عليه.

وظلت هذه المرآة أحد أســرار خشــم الموس، التي لم يفصح عنها أبدا، الى أن اكتشــفت نوار ســرها مصــادفة عندما نسى خشــم الموس، تخبئتها كالعادة قبل مغادرته إلى الغابة، للإستماع إلى طائر الجنة الملون.

نظرت نوار إلى المرآة فرأت شكلا غير شكلها، فدهشت وكررت الأمر أكثر من مرة، فتعاظمت دهشــتها.. وضــعت المرآة أمام وجه الكرســني، فرأت شــكلا غير شكلها الطفولي، أصيبت برعب حقن حلقها بالجفاف.. ومرت في لحظة خاطفة كل وقائع حياتها القصــيرة مع خشــم الموس.. منذ تزوجــا حتى تلك اللحظة المباغتة التي كررت فيها عرض وجه الكرســني أمام المرآة.. فبدت المرآة « كشــيء « حي.. بشــع. يلتهم الوجوه ويبصقها حيّة. مشوّهة !!..

وهـي تسـتعيد حياتها مع خشـم الموس في تلـك اللحظة المتوحشـة، الكاسـرة. توقفت وقائع حياتها عند لحظات معينة: وهي ترى خشـم الموس يلملم أوراقه بسرعة، كلما فاجأته خلسة في غرفته السرية، المليئة بالمخطوطات. المعبأة بروائح التاريخ والاسرار والمعارك، التي لا تخلو من إنتصارات شحيحة، لكن لا تشم سوى عطن الهزائم والمرارات كلما دخلتها..

وتراه –خشـم الموس – في تلك اللحظات التي تختلسـها لتفاجئه في الهزيـع الأول من الليل أو على عتبات الفجر، متسـحبا يمضـي إلى غرفته السرية – قبلها – تكون قد بحثت عنه طويلا في أرجاء البيت الكبير، دون أن تعثر له على أثر..

كل الأشياء المريبة في حياة خشم الموس، بدأت تخطر لحظتها، محاصرة وقائع حياتها، التي تمر الآن بسرعة، كشهاب منزلق في رئة السماء.. شهاب يتجـه نحوهـا، فيختلط رعبهـا بناره المحرقة، التي تصـيب المـرآة، فتتحطم إلى شـظايا صـغيرة، تتبعثر في الهواء كالقش الجاف، تخطفه ريح عاصـفة، كـذرات.. ذرات تذروها لعنة خفية فتملأ فضـاء البلدة، المقموعة في ذاكرة التاريخ الاجتماعي الفعلي للبلدة القديمة..

أصـابت الشـظايا بعض الناس في عيونهم، وجعلتهم يرون كل شـيء في صـورة شائهة، وجعلت بعضـهم لا يرون سوى الجانب السيء في كل ما ينظرون إليه، سـيان إن نظروا الى بعضـهم البعض أو الى الحيوانات والنيل، وهذه الأرض التي نبتوا فيها!!..

والذين أصـيبوا بشـظية في قلوبهم، أصـبحوا باردي القلوب، تيبست مشـاعرهم وأحساسـاتهم التي كانت ندية ذات يوم.. صـاروا لا يشعرون بآلام وأحزان غيرهم، إلى غير رجعة..

في اليـوم التالي لتحطم المـرآة ماتت نوار. فتغيرت حياة خشـم الموس والكرسـني إلى الابد. لم يعد خشـم الموس يمضـي إلى الغابة، ليستمع إلى غنـاء طائـر الجنة الملـون، وغرق الكرسـني في وحدة اليتم الموحشـة. هذه الوحـدة التي حكمت حياته، ولم تتحطم إلا بعد أن أصـبح يغادر البيت، ويتجـول في البلـدة القديمة ومقرن النيلـين. حيث يجلس في مـكان أثير، منخفض. عند الضـفة.. يحجبه هذا المكان عن عيون الناس، فيتمكن من رؤيتهم دون ان يتمكنوا مـن رؤيت. ودون ان ينتبهوا للعيون المجهولة التي ربما خالجهم إحساس غامض ذات مرة بأنها تراقبهم.

وكان ذلك اليوم الذي أنقذ فيه « العينة « إبنة العمدة من الغرق..

كان عمدة البلدة القديمة، رجلا واسـع النفوذ. اشاع الخبثاء أنه يستمد نفوذه من انتمائه لسـلالة الاتراك، بل وأكدوا أنه هو نفسـه بلحمه وشحمه، أكد أكثر من مرة في مجالسه الخاصة، أنه يتحدر من بيت محمد علي باشا، وذلـك كي يقطع الطريق علـى أي روايات محتملة، تزعم نسـبته للاتراك الذين أختلطوا ببعض سكان الشمال – اذ كان الرجل حريصا على تأكيد، أنه ليس من سـلالة الاتراك الذين أختلطوا ببعض سكان الشمال –.. ولم تكن هذه مزاعمه هو وحده بل مزاعم كل عائلته الكبيرة، التي ظلت تتمتع بنفوذ كبيير بإسم هذه المزاعم.

لكــن عندما ولى عهد الأتراك تحت ضــربات معــاول المهدية، فقد آل العمدة نفوذهم، الذي لم يتمكنوا من إسترداده مرة أخرى أبدا، الا بمجيء الإنجليز، اذ حرصــوا على التعاون مع الجيش الغازي، علهم يســتردون شيئا من المجد والنفــوذ القديم – كما أعتقدوا دائما – ولم يبخل عليهم جيش الغزو، فكانت لهم حظوة ليس لها مثيل في ماضيهم الغابر..

إذهيمنــوا على زراعــة القطن وتجارة الخشــب، بعد أن كســدت تجارة الرقيــق التي برعوا فيها.. أشــرع لهــم الانجليز كل المنافــذ، وهكذا تحولوا الى طائفة ثرية، لكن ترتدي مســوح الدين، اذ اســتخدموا براعتهم السابقة في تجارة الرقيق، والخبرة التي اكتســبوها من تصــدير القطن والخشــب، في التســويق لانفسهم كأولياء صالحين، وهكذا بدأوا يركزون على نسبهم لآل البيت النبوي، موثقا بختم الآستانة، وهكذا بدأو يلعبون دورهم الاجتماعي السياســي في البلــدة القديمة، بطريقــة مختلفة، تعتمد اســتدرار العواطف الدينية، و»الضحك على الدقون» !!..

وهكذا تعاقب كل عمد البلد من ســلالتهم ذات التاريخ المجيد ! ولم يقف الأمر عند هذا الحد فبعد خروج الإنجليز كان المرشحون في الانتخابات، معظمهم ينتمون بطريقة أو أخرى لآل عمدة البلدة القديمة، وان لم تربطهم بهم صلة رحم مزعومة، فهم من رعايا طائفتهم النافذة..

يذهــب البعض إلى أن الدمــاء التي تجري في عــروق آل عمدة البلدة القديمة، ليست نبوية مقدسة أوتركية متسامية فحسب، بل ثمة دماء انجليزية نبيلة أيضــا.. ويدعي هــؤلاء أن فتيات آل عمدة البلــدة القديمة الجميلات

عشــقن بعض اللوردات الانجليــز، الذين تعاقبوا منذ حملــة غردون مرورا بكتشــنر وانتهاء بكرومر وســير لي ستاك، وأثمر هذا العشــق ثمارا لا تقل وسامة وجمال عما تصفه الحكايا عن جمال الحوريات والجن.

فآل العمدة هم أنسباء الحاكم العام، الذي كان قد رأى إحدى بناتهم، فتدله بحبها، وطلب يدها في التو واللحظة التي رآها فيها، فوافق آل العمدة دون أن يأبهو لموقف رجال الدين، الذين تبقوا من الفيالق المقاتلة للإنجليز.

وافقوا.

فمضــى الحاكم العام يخاطب من عاصمة المســتعمرة، التي «ضحك فيها القدر» زوجته في عاصمة الأمبراطورية التي « لا تغيب عنها الشمس»، طالبــا منها الشــروع في الموافقة، علــى إجراءات طلاقه منها، ضــاربا عرض الحائط بثورة الكنيســة ضــده وضــد موظفي جلالة الملكة، في مستعمرات أفريقيا العجيبة. الذين كانوا بســبب الطقس الحار مســتثارون إلى أقصــى حد، ما جعل لحياتهم السرية نكهة قوية تخطت حدود الاستواء، فلامست الضباب !!..

وهكذا أصبح كل ما هو سرا حاولوا إخفاءه، معلنا. تفوح رائحته القوية في تقارير رجال البريد والســرك، والحقيبة الدبلوماسية، عليه بصمات كتبة التقارير الشــوام الواضــحة، والتي لاتخطئها عين أو اســتنتاج، مهما كانت العين حولاء، او الاستنتاج ضعيفا !..

يحكــي أهالي البلدة القديمة في هذا الســياق، حكايات لا أول لها ولا

آخر، تفضـي كلها إلى نسـيج محكم عن سـيرة آل خشـم الموس، إذ تفيد بعض هذه الحكايات، أن الكرسني بعد أن خرج من عزلته البديعة، وأصبح يتجـول في انحاء البلدة القديمـة، لفت إنتباهه احد البيـوت الكبيرة، التي تضاهي بيت والده فخامة وجمال.

كان ذلـك البيـت الفخم الذي نهض عند مشـارف « الفتيحاب « هو بيـت عمدة البلدة القديمة، الذي بعد أن ماتت زوجته، مخلفة وراءها طفلته الصـغيرة « العينة «، أخذت والدته العجوز تتعهدها بالرعاية، وتدير شئوون البيت الكبير، وتحكمه كملكة خارجة للتو من قلب «اسـطنبول» في لحظات مجدها الغاربة..

كانـت الجـدة العجوز تبدي لحفيدتها « العينـة « محبة دونها يهون كل شيء. ولم تكن تسمح لها بالخروج عن حدود الدار الكبيرة، دون رفقة آمنة من الخدم والحشم..

كانت العينة تواقة منذ طفولتها وصباها للخروج من عالم الجدة العجوز وابنها العمدة، الى عالم البلدة القديمة الرحب. الى أن سـنحت لها الفرصة ذات يوم، فانسـلت خلسـة يتآكلها الفضول، فخرجت لا تلوي على شيء، الى ان اقتربت من النهر، ورأت على ضـفته تلا أخضـرا، وغابة خلفها بيت مميـز كبيتهم. كانت اضـواء البيت تبـدو من بعيد خافتـة مترقرقة كندى، وأصـوات العصافير التي تزقزق خلف تغريد طائر الجنة الملون هادئة، تبعث على الإحسـاس بالسلام والصـفو. وقتها كانت الشمس قد بدأت تغوص في الأفق والسحب تضيء بألوان ذهبية زاهية. براقة. تتألق في سماء شاحبة

اللون، وقد بدا الهواء عليلا، والنهر أملسا كمرآة صافية، أو كسيف العمدة الصقيل، والقوارب الشراعية تمخر في هدوء يثير غناء الصيادين العذب، فيترعون كلماتهم بحنين وأنين..

أقتربت العينة من النهر أكثر فأكثر، حتى لامست بقدميها الصغيرتين المياه، التي تلامس ضفة النهر في شغف مثير..

اقتربت من احد المراكب الشراعية الصغيرة، حلّت رباطه عن الضفة، وأمسكت المجذاف تحاول أن تنطلق..

كانت رغبتها العارمة في ركوب النهر تهيمن عليها، وتدفعها دفعا كقوى قاهرة لا قبل لها بها. كانت كالغائبة عن الوعي، و كأن قوى أخرى خارجة عن إرادتها، تسيرها وتتحكم فيها.

تغير الجو فجأة، وعلى نحو مباغت أصبحت أمواج النهر تهدر، وشيئا فشيئا أخذت تعلو مزبدة، ونذر عاصفة ساحقة تلوح في الأفق.

عندما حركت العينة المجذاف، وقع بصر الكرسني عليها، من موقعه المنخفض على ضفة النهر. شعر بقلبه يخفق بشدة.

أخذت المراكب الشراعية ترسو على ضفتي النهر، وبدا الضباب الذي يسبق العاصفة ينتشر. وبدت العينة للكرسني بعيدة، مزعورة. نهض من مكانه ودخل إلى الماء، يسبح محاولا اللحاق بمركبها المتأرجحة، التي تبحر دون هدى.. بعيدا، بعيدا.. بدت له الرؤية صعبة مع انتشار الغيم. حاول ببصره المدفوع بضربات قلبه المرتفعة، اختراق الغيم للإمساك بالموقع الذي

أبحرت فيه العينة. غاص تجاهها، بعيدا بعيدا في النهر. ووجيب قلبه يشتد، والموج هادر، ورأسه يدور كحجر الطاحون..

بدأ الموج يتلاعب بمركب عينة أكثر فأكثر جيئة وذهابا. والزبد الذي في أعماقه، كأنه يخرج ليدفع الموج إلى أعلا، فتندفع مركب العينة بعيدا عنه. يحاول جاهدا تحديد مكانها. يتتبع صراخ العينة المتقطع.

كانت مركبها تتحرك بسرعة مع أرتفاع الموج عاليا كالزفير. وكانت السحب الكثيفة قد تجمعت في السماء، وأخذ الرعد يدوي بشدة.

أدرك الكرسني أن هذه العاصفة التي توشك على الهبوب، لا محالة ستقضي على العينة، وقد تقضي عليه معها، لكنه أستمر في السباحة خلفها..

على نحوٍ مباغت إندفعت موجة كبيرة، قلبت المركب، فانكفى مرتجا، بصوت مكتومٍ في هدير الموج. الممزوج في صراخ العينة الحاد..

اقترب منها الكرسني، مخترقا حصارات الخطر الذي يحاصرهما. سبح تجاهها مغالبا المخاوف والهواجس وقواه التي بدات تخور، جمع كل طاقة سلالته ذات النسب المقدس، والتركي النبيل في دفعة واحدة، محاولا قهر الامواج المتصاعدة، والحلكة التي بدأت تخيم على النهر. لمع ضوء البرق الخاطف، فوجد نفسه قد أقترب منها. سبح تجاهها وأمسك بها. كانت منهكة. خائرة القوى. لا تستطيع رفع رأسها المسكون بالخوف والرعب، كأن كل كوابيس البلدة القديمة، تتوغل لحظتها في إحساساتها

ومشـــاعرها، وتدفعها دفعا للغياب، الذي يشـــد رأســـها بقوة، خارجا بها إلى اللحظة الفاصـــلة بين الوعي واللاوعي، دون ان تتمكن من رفع رأسها لرؤية هذا الفارس المنقذ، الذي تخاله وهما حميما، يتخلل كوابيســـها الممتدة في ذاكرة البلدة القديمة.

كان الكرسني قد أمسك بها بقوة، وأخذ يدفعها إلى الشط.

من صلب الكرسني والعينة تحدر أبناء وأحفاد لا حصر لهم، انتشروا في كل أنحاء البلاد الكبيرة إنتشـــار النار في الهشيم، لكن لم يبق منهم سوى إبـــن واحد، هو الجد الذي ينحدر من صـــلبه عجبين خشـــم الموس. الذي لطالما كان في ليالي الســـمر العائلية، يحكي لأبنائه وأحفاده، عن جده خشم الموســـ الكبير، وعن جدته نوار وعن البيت الكبـــير في البلدة القديمة، عند ضـــفة النهر. وهذا البيت الذي لم يتبق منه، سوى أطلال تحكي ذاكراتها، عن أمجاد زوت في تقلبات الزمان وتحولات المكان.

هذه الحكايات العائلية مثلت محورا لعالم عجبين، الذي كان مســـكونا بها منذ طفولته الباكرة، إلى درجة أنه يخال نفسه أحيانا خشم الموس الكبير، أو إبنه الكرسني، ويتصور حبيباته كنوار والعينة، فينظرون إليه بغرابة كأنهن يتهمنه بالجنون، فيبتلع ريقه ويحسر عينيه الجاحظتين، ويكظم غيظه، محاولا إخفاء تورماته، ثم لا يلبث أن ينســـى كل شيء، إذ يدهمه حسنين التائه.. حسنين التائه ؟!..

2

في المرة الاولى التي زارت فيها ليلى شـقته، كانت أنيقة في أبهى صـورها. التحفـظ والحياء اللذان أبدتهما، جعلا لجمالها طابعا مميزا. كانت مختلفة قليلا عـن تلك المـرة الأولى التي ألتقاها فيهـا، عندما جاورته في المينـي باص. لبثا لبعض الوقت، دون أن ينبث أحدهما ببنت شفة..

ربما كانت تفكر لحظتها، في مآلات حياتها إلى النفي الإختياري. وربما خطر ببالها حبيب بعيـد عرفته يوما، وظنت أنه لن يعبر إلى الجانب الآخر من الحياة دونها. تقارن الآن بينه وبين عجبين، وهي تتسـاءل في دخيلتها، كيف تداعت الإحداث منذ التقته، إلى أن وصلت إلى شقته.

كان هو بين فينة وأخرى يتحسـس وجهها بنظرة خاطفة، تغرقه اكثر فأكثر في ذاكرة البلدة القديمة. محض نظرة فحسـب تعبر به كل المسافات، لترمي به في بلاده البعيدة، لتستعيده البلدة القديمة إلى أعماقها..

أعمـاق تاريخها، حيث لا جذور حقيقية لسـكانها الغـزاة و» القراقير» و المنبتين والساكسون المحتلين والأرمن و الألبان بقايا حملة محمد علي باشا..

لا جذور سـوى لهـذه الأرض، التي بتهـا بقايا الغزاة والمسـتعمرين عن ثقافتها الحقيقية، ثقافتها السـوداء الضـاربة في الأبنوسـ والطين، ثقافتها التي

يفصح عنها طمي المقرن، وهو يشكل نهره الواحد الممتد من ثنائيات الغابة والصحراء. الحرب والسلام. النصر والهزيمة، الى آخر المعاني المتدارية في الشوارع العامة للبلدة القديمة، ومجاري السيل المتحدرة من الغرب إلى الوسط.. تسأل ليلى:

– أفتقد بحر أب روف وخور أبي عنجة، في هذه الجغرافية الضيقة.

– أنظري إلى نيلنا هنا في شمال الوادي، كيف يصبح ضيقا ووسخا !.

– يولد لدينا يافعا، مليء بالعنفوان، يرهقه طول المسير، فيصل «هلكان»، ضيق، متمزق، متالم وحزين.

– إنه حال الغريب.

– طوبى للغرباء.

– قلت لأحد المصريين ذات مرة: أعطوا أنتم النيل إعلاما وأتركوا لنا أمر الاستمتاع به.

وضحكنا، وسردنا مفارقات ومواقف مرت بنا مع سكان هذه البلاد المختلفة عن بلادنا الحقيقة في كل شيء..

– انها شقيقتنا الكبرى.

– ده كلام سياسة ساكت. لزر الرماد في العيون.

النهر. نهر النيل. هناك في أرضه السوداء يغذي الناس، فتمتد عروقهم في

كل جزء منه.. النهر..

يغيب عجبين فيه لينقذ العينة. فيهدهده. يغيب في تغريد طائر الجنة الملوَن. يغيب في وجه نوار الحبيبة. يغيب في غرفة خشم الموس السرية، وأحزان الكرسني الصغير وفضاء الحديقة والغابة الرحبة، فيشهد التحولات..

تحولات البلدة والناس، منذ كانت البلدة صغيرة، ذات بيوت قليلة وناس قليلين، لا يزيد عددهم عن العشرة أسر وعائلات. تناسلت ونمت، وتحولت بمرور الوقت إلى بلدة كبيرة، إلتهمت الغابة وحديقة خشم الموس، ولم تعد فيها مساحة كافية الآن، لتكون لكل فرد حديقته الصغيرة الخاصة، في بيته الصغير الحميم.

فقد تم شق الشوارع العريضة وسفلتتها، وتم تحديد البلدة – التي كانت – بمؤسسات الدولة والشركات، وحلت أنوار الإعمدة محل القناديل.

نهضت العمارات السوامق والاسامي العربية – العربية وتغيرت كل الأسماء والملامح القديمة، وأصبحت بيوت البلدة – التي كانت – تزرع النباتات في الأصص وتستخدم المايكرويف لتسخين الخبز – كأنها لم تعرف كسرة «الفتريتة» يوما –، وتستنشق هواء المراوح المعلب، وتستخدم مكيفات الهواء صيفا وشتاء، بل وتستعمل مناديل الورق في الحمام. وأكثر من ذلك.. حتى تلك الموضوعات العجيبة التي تدرس لطلبة المدارس – مثل الشوق والحنين في الشعر الجاهلي، والبدوي أخ الصحراء – في خبر كان، مع تداخلات عناصر الحضارة الغربية التي تم تعريبها، وعناصر ثقافة المكان في

البلدة القديمة.كل شـــيء صـــار معلبا، لا اللحوم والخضر والفاكهة فحسب بل حتـــى « الهُوِّية».. هوِّية الناس الفعلية مهمـــا إنبتو، والمكان مهما أعادت الدولة إنتاجه. ليس ثمة شيء واحد طازج يعبر عن ذاته الحقيقية، فكل شيء تم غمره في ضباب معتم.

ومن قلب هذا الضـــباب كان وجه عجبين ينبثق. يتجول في فضـــاء البلدة القديمة. يرى نوار. يرى العينة. يرى خشم الموس. يرى حديقة أزهار الكرسني الصغير، والتمثال الرخامي الجميل لحورية النيل، ينعكس عليه ضوء الشمس الغاربـــة. يرى عالمـــه. كل عالمه يتهدل، ويعـــبر أمام عينيه، ليتكـــوَّم كالقماش القديم، ليخـــرج منه وجه ليلـــى، فيتنهد وهو يحيطه براحتـــي كفيه الدافئتين، ولهاثه يتصاعد. يتصـــاعد حتى أقصى بيوت البلدة القديمة، حيث هدير النهر وغناء طائر الجنة الملوَن.

إنتفض عجبين إثر السؤال المباغت لموظف الأمم المتحدة:

– ما اسم المكان الذي تم اعتقالك فيه للمرة الثانية ؟

– سراي كنتباي.

– متى حدث ذلك ؟

– 20 أكتوبر 1990.

– والتحقيق.

– ذات الاسئلة التي طرحوها في التحقيق الأول. وذات الإتهامات.

– ذكرت في طلبك للحصــول على حق الحماية الدولية، أن رئيس اللجنة الشــعبية، كان قد أبلغك مسبقا بعدم ممارســة أي نشاط إجتماعي أو سياسي، وإلا ستعرض نفسك للمساءلة الأمنية.

– هذا صحيح

– ماذا فعلت بعد أن تم إطلاق سراحك ؟

– قدمت اســتقالتي، فقد أجبرت على توقيع تعهد بتقديمها، وعدم ممارسة أي نشاط، وعدم الخروج من البلدة دون إبلاغهم.

– ماذا حدث بعد ذلك ؟

– لم يكفوا عن تهديدي والتحرش بي. فأضطررت الى الاختفاء.

– ألم يطلبوا منك في التحقيق أن تتعاون معهم ؟

– فعلوا لكني رفضت.

.. كم مضى من الوقت منذ غادر البلاد الكبيرة: عام. عامين. عشرة.. لم يعد يدري بالتحديد كم مضــى عليه في الغربة من بلاد إلى أخرى، فكل شيء متشــابه: الأمكنة. الناس، والزمن.. شــيء واحد فقط يعطــي لحياته معنى.. ليلــى بوجهها الطفولي النابض بالحياة والإصــرار العنيــد. النابض بهذا الحب الكبير، الذي تسبغه عليه، فتعطي لوجوده معنى.

ليلــى التي أحبها على مفترق طرق نهشــتها الغربة والحنــين. ليلى التي

تنهض الآن في هذه اللحظة بالذات.. تنهض من ركام وجوه الأصدقاء الأربعة، الذين لا يزالون جالسين في مكانهم ذاته، غارقين في سجالاتهم العقيمة، حول أحواله.. كأنهم يزمعون كتابة تقرير عن الجنون.

يتنهـد اربعتهم وهم يحسـرون وجوههم عن المـارة، يتنهدون جميعهم في زفرة واحدة، تبدد الصـمت الذي خيم على فضاء الذاكرة والمكان فجأة. دون أن ينبثوا ببنت شفه.

فقد كانت أفكارهم. كل أفكارهم، لا تزال مركزة حول سـؤال واحد: ما هو الجنون. هل هو عالم خاص داخل العالم الحقيقي. عالم الواقع. أليس لهذا العالم الخاص، واقعه الخاص به.. ما الفرق بينهما ؟!..

لسـنوات طويلة ظل عجبين خشم الموس يتساءل عن هذا الفارق. يعيشه ويتنفسه ويحيا به. كان قد توصل منذ وقت مبكر.، إلى أن الزاوية التي ننظر منها لعالم الواقع، او للعالم الخاص، أو ما يجوز تسـميته ب»الواقع الإفتراضي»لأي شخص هي التي تحدد تصنيفنا لهذا العالم. فالإنسان هو الكائن الوحيد الذي يريد – بسـبب الاحلام - أن يكون ما ليسـ عليه فعلا. فالكائنات الأخرى مثل الحيوانات لا تريد أن تكون شيئا غير نفسها. ليست لديها نزعات انقلابية أو إحتلالية لعالم البشـر – لكن البشر يقلدون حتى سلوكها الجنسي، بإسم النزعـة البدائية – ليس للحيوانات الرغبة في مغـادرة الأرض إلى اي كوكب آخر – الكلبة «لايكا» أجبرها الانسان على ركوب مركبة فضاء -. والحيوانات لا تسـعى لاستنساخ بعضـها أو استنساخ اي شـيء آخر – النعجة «دولي» استنسخها الانسان – ولم يحدث ان اخترع قردا سلاحا نوويا أو سعى ثور او

حمار لانتاج أسـلحة بيولوجية او كيماوية، لقتل الناس أو اصـابتهم بالمرض أو تدمير الاخصـاب فيهم- رغم ان الناس يضطهدون الحمير ويذبحون المواشي ويأكلون لحمها بتلذذ -. وحده الانسان، هذا الكائن الانقلابي الرهيب، وحده الذي يريد فعل مثل هذه الأمور، حتى في أكثر الثقافات محلية يستغل السحر والطلاسـم لإحـداث الأذى. ما الذي يريـد إثباته. انه هاجـس البحث عن اجابات لأسـئلة لم يطرحها سواه. أسئلة لم يطرحها عليه هدهد سليمان، ولا نملته. أسـئلة لم تفكر فيها ناقة صـالح، ولا حمار عزير ولا كلب أهل الكهف، ولا أي كائن من الكائنات المدهشة في الماضي والحاضر.

كما أن المجانين لا يشـعرون بأنهم مجانين، ولا يفكرون في جنون بعضهم البعضـ، فالتصـنيف والتصـحيف ليس أحد همومهـم، ولا يندرج ضـمن مشـاريعهم.. يتآلفون مع بعضهم البعض، في أُلفة حقيقية، يفتقر إليها سواهم. فهم كمجانين ليسو مضطرين لممارسـة النفاق الاجتماعي، ويعيشون حياتهم كما يريدونها بالضـبط. ويقتربون أكثر فاكثر من بدأة الإنسان وبراءته المفقودة. يقتربـون أكـثر من روح الطبيعـة، التي أهدرتهـا تجارب البحث عـن إجابات بالنفايات والتلوث والإسـتخدامات الخاطئة للسلطة والثروة. ودائما الإجابات التي يحصلون عليها غير شافية. فيستمرون في طرح الأسئلة على انفسهم.

في حياته العامرة بمفارقات حكايا آل خشـم الموس والبلدة القديمة، جلس عجبـين الى العديدين ممن تمت تسـميتهم بالمجانين، تعلم منهم ما لم تسـتطع الآيدلوجيات والمناهج والافكار الكبيرة تعليمه إياه. تضاءلت معارفه كلها أمام معارفهم « الحقيقية « حول جوهر فكرة الحياة: الحرية. الطبيعة.. منذها عشـش

« الجنون « فيه، ولم يعد عجبين هو ذاته.

ففـي الأوقـات التي يهجر فيها عزلتـه البديعة، يتحول إلى شـخص آخر هو: حسـنين التائه.. وعندما يعود إلى عزلته في اللحظات الفاصـلة بين حياته كعجبين، وحياته كحسـنين، يبدأ في إسـتعادة وقائع حياته وذكرياته المنصرمة. ينسـى شخصيته الأخرى: شخصية حسنين التائه، ويتذكرها كصديق حميم وهو يتسـاءل: كيف يتحـدد معنى بعض الكلمات، فتصـبح مرادفا لأشـياء محددة، كلما ذكرت الكلمة نهض مرادفها أمامنا.. نحس به. نستشـعره. نكاد نتحسسه باصابعنا.

مـن بين هـذه الكلمات كلمـة « ذكريات « فوقائع حياته كعجبين خشـم الموس، عامرة بالصراعات والمخاوف والظنون. والكر والفر.. المرارات والهزائم، والإنتصـارات الساحقة، وتلك الإنتصـارات التي لا فرق بينها وبين الخسارة الكبـيرة. كل ذلك تحوَل منذ وقت ليس قصـيرا، إلى محض ذكريات يشـعر تجاهها بالحياد، دون ألم أو ندم أو تعاطف.

مـن بين كل أنواع الذكريات، التي تعبر حياته الآن، ذكرياته مع صـديقه حسـنين التائه. ذكريات لياليهم المترعة، بسجالات السياسة والأدب ومتاعب الحيـاة، ومرآة جده السـحرية. ذكريـات الكأس ومغامرات الحب المجهضـة، والغناء عند شـاطيء النيل، في الليالي المقمرة، على أنغام العود وصـوت الماء تحركه سمكة، أو عشبة طافية، أو حجر عابر.

نعـم. ذكرياته مع حسـنين التائه، هذا الكائن اللحـوح. ففي هذه الحياة،

ثمة كائنات بشـرية غريبة !!تكاد تصرفاتها تدفع الإنسان إلى الجنون.أكثر هذه الكائنات غرابة، أولئك اللحوحون في الحصـول على شرعيتهم من الإخرين.. الآخرين الذين يتصـورونهم «مميزين» دون أن يدركوا أن مشـروعية الانسـان، تكمن في إنسانيته، التي ليست بحاجة إلى صك للتأكيد عليها، أو للتأكيد على إسهام الإنسان مع الآخرين في صياغة المعنى الإجتماعي العام للحياة.دون أن يدركوا، أنه ليس مرجعية – هو عجبين – لمنح المشـروعية لأحد، فالمشـروعية يمنحها الإنسان لنفسه، بجهده وحسن إدارته لذاته. بما يقنع الآخرين به.

لو أدركوا ذلك لأراحوا أنفسهم وأراحو الناس.

حسـنين التائه هـو من هذا النوع الفضـولي، المزعج للدرجـة التي تجعل ذاكرة عجبين الآن تشعر بغثيان مريع، فمهمة حسنين كانت دائما تقتصر على تنقيصـ حياة الآخرين، إذ لا يريـد أن يقتنع بأنه مواطن عادي مثل بقية خلق الله. يظن نفسـه كاتب كبير، وصـحافي خطير، مع أنه لم يكتب شيئا له قيمة، بسبب نقص الموهبة، وضعف القدرات وعدم الإلمام بأسرار لعبة اللغة.

كمـا أنه في كل حياته العامرة بأحاسـيس الإضـطهاد والغبن، لم يتمكن مـن قراءة كتاب واحد له قيمة حقيقية، فاعتمد على الثقافة السـماعية، كأداة لتلقـي المعارف المبتسـرة. فـكان أن جـاءت إدراكاته مشوشـة ومبتورة: غير واضـحة المعالم. ولتعويضـ ذلك منذ اللحظة الأولى، التـي يتعرف فيها على شـخص، يبدا يحكي له الأكاذيب، عن إنجازاته الإعلامية والأدبية والفكرية، الجريئة والمزعومة. ولا ينسـى ان يعرج للحديث عن معارفه المهمين، وكيف أن الآخرين يقسـمون عليه بالطلاق حينا – حتى لا ينشـر أفكاره الجريئة فيهدد

معتقدات الناس بهذه الافكار المستنيرة السابقة لعصرها – وحينا آخر، حتى يزوجونه من بناتهم الحسناوات.

حسنين التائه هذا، هو أحد أسوأ حكايات البلدة القديمة كوابيسا. على الرغم من أنه في التحليل النهائي محض شخص أفاق، تائه كهلام على سطح سائل.. هلام مشوّه في مكوناته المتنافرة. هذا الكائن الغريب – حسنين التائه –ظل يلاحقه بوقاحته، وسماجته من مكان إلى آخر، بإصرار، إلى أن نجح في إصطياده، بإستدراجه ل» الكلام « نعم ليس سجالا، أو نقاشا، أو حوارا. محض كلام ضبابي حول أفكار تائهة، هائمة ظن أنها أفكار عظيمة جادت بها عبقريته غير المسبوقة. كلام لا معنى له بسبب قصوره الفكري، حول أمور – كما يبدو – تخطتها عقول الناس، منذ وقت طويل، بعد أن قتلتها بحثا، لكنه كان يظن أنه أكتشف شيئا جديدا، جديرا بالإهتمام. سأل عجبين نفسه:

– ما مشكلة هذا الكائن الغريب، البائس معي ؟.. لماذا يصر على زجي في هواجسه وظنونه ؟ !!..

عندما تعرف عليه للمرة الأولى، اخذ يتفحصه كجرو صغير، محاولا إستقراء كل شيء فيه: طريقة كلامه، تفكيره، جلوسه، تأرجحاته في هذا الجلوس. الطريقة التي حياه بها، والتي بذل فيها مجهودا كبيرا، لتكون تمهيدا لحوار بينهما.. ثيابه التي يرتديها. ألوان هذه الثياب. عاداته أثناء الكلام. كل شيء.. كل شيء. وهكذا توصل عجبين إلى أن هذا الكائن، تنطوي نفسيته على إحساس عظيم بالإضطهاد، وغبن لا حد له. وما أن توصل إلى هذه النتيجة، حتى عمل على عدم التواصل والتعاطي مع هذا الكائن، وبالطبع

لم ينجح في ذلك.

آخـر إحتفال أسـري أقامـه بعض الإصـدقاء في منزل أحدهـم، إحتفاء بذكـرى بائـدة، لثورة وطنية خرجت مـن قلب التاريخ الى غير رجعة. مضـى عجبين خشم الموس يمني نفسه بمرح حقيقي، مع كؤوس الخمر والندامى.. مرح افتقده منذ وقت ليس قصيرا، فلبى الدعوة لحضور الإحتفال.

كان اخر شـيء من الممكن أن يخطر على بالـه، هو ان يجد ذلك الكائن ضـمن المحتفلين، فلو علم أنه سيكون هناك، لتراجع عن تلبيته للدعوة. خاصة أنه كان لا يرغب في أي نقاشات جادة.فكل ما كان يمني النفس به، هو الشرب حتى الثمالة، والغناء والإسـتمتاع إلى أقصى حد ممكن، فقد مضى عليه وقت طويل، وهو سجين كتبه وأوراقه، تحاصره الوحدة والعزلة من كل جانب.

مـا أن وطأت قدمـاه باب الدار، التي أقيم فيها الإحتفال، حتى أنصـرف للبحث عن الغرفة، التي أجتمع فيها أصدقاؤه الندامى، ليجلس بينهم..

كانـوا ثلاثة فقط. ما أن شـربوا وبـدأت الخمر تتلاعب برؤوسـهم، حتى انشقت الأرض عن حسنين التائه:

- إزيك يا أستاذ. ما متذكرني طبعا ؟..

- لا متذكرك !.

رد عليه بحدة.

كان حسـنين التائه يظنه سـكر للدرجة التي لم يعد يتذكر فيها شـيئا. «

هكذا فكر «.. وبذات الطريقة التي أقتحم فيها المكان، منتهكا جلسته الحميمة، إستدرجه لإثارة موضوع جاد، لا يتذكره الآن. فكل ما يذكره هو أنهما لأكثر من ساعة كانا يتكلمان.. وليكن أكثر دقة، كان حسنين هو الذي يتكلم. شعر به كأنه صمم في داخله على إقناعه، بأنه مثقف خطير، وعليه أن يعامله على هذا الاساس، ويظهر له الإحترام الذي يظهره المثقفون لبعضهم البعض، كما يظن، إذ لم يكن يدرك أن المثقفين هم الكائنات الوحيدة من دون خلق الله، حرمت نعمة إحترام بعضها البعض !! هكذا دونا عن سائر خلق الله!!..

ظل حسنين يتكلم إلى ان أنقذه منه بعض الأصدقاء القدامى.

في اليوم التالي، عندما تلاشى أثر الخمر وأفاق. كان أول شيء خطر بباله وقائع ليلة البارحة. تذكر حسنين التائه.. هذا الكائن اللحوح المزعج. مضى وقت طويل قبل أن يلتقيه مرة أخرى، عند زيارته لأحد الأصدقاء القدامى. فوجيء به جالسا معه. وفوجيء به يبادره بالسؤال ذاته:

– أتذكرني ؟.

فرد عليه بحدة أكثر:

– ما هي مشكلتك. لماذا تظن دائما أن الناس لا يتذكرونك ؟!..

3

لم يكــن الثلاثــة: أيمــن، عاصــم وعثمان مجــرد أصــدقاء تاريخيين فحســب، بالنســبة لعجبين خشم الموس. كانوا بالنســبة له أكثر من ذلك. فقد جند ثلاثتهم للتنظيم بنفسه. وأصبح بعد ذلك مسئولا عنهم في اللجنة الإعلامية. كان يسهر مع ثلاثتهم، في كثير من الأوقات، حتى مطلع الفجر. خاصــة في تلك الليالي التي يكون لديهم فيها عملا إعلاميا مركزيا، عليهم إنجازه. إذ كانوا يســهرون لكتابة الصحف الحائطية، وتوصيلها بعد ذلك إلى الجامعات، لتعليقها في مجمعاتها الإعلامية.

لا يــزال يذكر كأن الأمر تم البارحة فحســب، ولم تمض عليه كل هذه السنوات. عندما كانوا يتجمعون في منزل عثمان، الذي يكون وقتها قد حضّر « التفتــة « بألوانها المختلفة، وأقلام البوص والصــمغ وورق «الفلســكاب». بينما يذهب عاصــم لاحضــار الســمك المقلي والليمون، وعرق البلح من ناصــية الشــارع، وينشــغل هو بترتيب الأوراق الصــغيرة التي كتبت فيها التحليلات السياسية والأخبار. عندما يفاجئه عثمان بين آنٍ وآخر بسؤال:

– لماذا لا ندع التنظيم في كل جامعة يكتب تحليلاته، ويصــدر صحيفته بنفسه ؟.

– لا بد من قبضة مركزية على الإعلام. هكذا يرى الحزب الإمور.

– لكن لكل جامعة خصوصـية مشـاكلها. كما ان اعتماد التنظيم في كل جامعة على نفسه يحفز فيه هذا الاعتماد روح الخلق والابداع.

– القيادة تعتمد في أوضـاع الجامعات على المعلومات المستقاة من هذه الجامعات نفسـها. كما أن دواعي التأمين تفرض هذا الاسلوب المركزي في العمل الإعلامي والدعائي. تكفيهم مهمة تعليقها خلسة في جامعاتهم.

– لكنهم معرضين للخطر.

– انها ضريبة انتمائهم.

ينهي عثمان لصـق ورق الفلسكاب إلى بعضـه البعض، حتى يصبح بحجم البورتات التي سيعلق عليها في الجامعات.

كانوا يعملون مرة واحدة في الإسـبوع، يحضـرون كل شـيء قبل أن يتلاعب عرق البلح برؤوسهم.

لا يزال عجبين يذكر الأمر كأنه البارحة، أين هم الآن: هل ما زالوا كما هم.. أم تغيرت أحوالهم بإنضمام حسنين التائه إليهم..

وهـؤلاء الأربعة الذين يجلسـون أمام الجدار الخارجـي، لبيت البلدة القديمة: من هم ؟ هل هم حسـنين التائه وأيمن وعثمان وعاصم، أم أن هذه أشباحهم تخرج من قلب الذكريات، لتذكره بالذي مضى..

هل حقا أن كل شـيء إنما هو من بنات خياله وأفكاره، ولا يمت للواقع الحقيقـي الفعلي الذي جرى بأدنى صـلة ؟!..وأن هذه الأسـماء والوقائع والأحداث، لا وجود لها على الإطلاق ؟..

أيـا كان الامر فثمة حقيقة واحدة، لا يمكن أن تخونه ذاكرته فيها، هي: هناء.. حقيقة حبهما، تجولهما في زقاقـات ودروب البلدة القديمة، لقاءاتهما الحارة في غرفته بالفتيحاب. لقاءاتهمـا الحميمة في الكافتيريا المجاورة لفرع القاهـرة بالخرطوم. هوسـها الغريب بان تعرف كل شـيء عن « التغويص « في القوى الأخرى. حبها لهذا العالم الاسـتخباري الغامض. اسـتجاباتها التلقائية للإبتزاز العاطفي، الذي يمتهنه عاصـم بإدعاءه المرض، والشـكوى المتكررة لدرجة الملل، عما يعانيه من آلام ليكسـب عطف الآخرين، ويشعر بإهتمامهـم به- يريـد أن يكون محور العـالم -، ومؤامراته الصـغيرة التي كانت تعكر أجواءهم الحميمة، وإمسـاكهم به متلبسا بحوزته أختام مزورة، تحمل شعار ’إحدى الجامعات، وشهادات تفاصيل، وبطاقات.. الأمر الذي جعلهم يبدأون بالشك فيه.

بدات علاقة عجبـين بهناء بريئة، كما حاول إقناع نفسـه بذلك مرارا وتكرارا. كان يتصـور ان اللحظة التي سـيعبر فيها لهناء عن إشـتهاءه لها، سـتكون حدا فاصلا لعلاقتهما، التي لم يكن يصـدق يوما أنها ستتحقق، فظل منطويا على الجمر الذي يحرق دواخله، إلى أن فاض بها فباغتته:

- لقد تعبت من المشي في الشوارع، والجلوس في الكافتيريات.

– ماذا تقترحين ؟

– علمت من عاصم ان لديك غرفة في بيت « العزابة «.

لم يصــدق أذنيه. ارتبك وظن نفسه أخطأ السمع، فهناء حلم مثالي في ذهنه لا يجرؤ على التفكير فيه حسيا.

– ماذا تقصدين ؟!..

– ألا تود أن تفرجني على غرفتك ؟..

وهكذا مضيا في ذلك الصباح البارد إلى الفتيحاب، يحاصرهما صمت الشتاء..

4

هناك بعيدا في قلب غابة خشم الموس، نمت في وقتٍ ما شجرة سنط جميلة، كانت الشـمس تسـطع عليها وتغمرها باشـعتها الذهبية، والنسـمات تتحرك حولها، في دعة وحبور دون قيد أو رسن، وبالقرب من هذه الشجرة، على ارض الغابة نمت أشجار مختلفة من كل نوع، شكلّت غابة خشم الموس الكبير.

كانـت هذه الشـجرة موطن طائر الجنـة الملوّن، تتلهـف دائما لزيارات خشـم الموس، وعندما انقطع عن زيارتها إثر وفاة نـوار، إزداد توقها يوما بعد آخر لرؤيته، فكانت ترسل نداءاتها له في تغريد طائر الجنة الملوَن، فيعبر غناء الطائـر العذب الغابـة الى الحديقة. يدخل من نوافـذ البيت الكبير، حتى يصـل إلى غرفة المخطوطات و الأوراق والكتب، التي يحبس خشـم الموس نفسه بينها.

وبعد طول نداءات جفت الشـجرة، من دون كل الأشجار، هي وحدها جفت. ولم تخضر مرة أخرى إلا بعد أن أصبح الكرسني إبن خشم الموس الصغير، يجيء ويقف في ذات المكان. يسمع تغريد طائر الجنة الملوّن..

الآن إختفـت هذه الغابة، ولم تخضـر مرة أخـرى، إلى أن أن أجتثت أشـجارها من قبل موظفي الإسـكان، ولم يبق من ذكراها سـوى شـجرة

السـنط، التي جاورها منزل صـغير، هو كل ما تبقى من إرث خشم الموس الكبـير، بعد أن صـادرت الحكومة العامة البيت والحديقـة، وحولتهما الى متحفا « وطنيا « !.. هذا المنزل الصغير هو منزل عجبين حفيد خشم الموس الكبير..

في صـيف البلدة الغائـظ كان عجبين يفتـح نافذة غرفتـه المطلة على الشـارع.. حيث شجرة السنط العجوز، التي ينقل بصـره بينها وبين المرآة المشروخة في جدار غرفته.. وبين شجرة السنط والمرآة، تنثال الأخيلة والصور المعتادة، والأشباح التي يحادثها، إلى أن يخرج متجها إلى مكانه الأثير ، عند المقهى الذي يتوسـط سوق البلدة القديمة، فيمر في طريقه بأصدقاءه الأربعة القدامى، الذين يصمتون حالما يرونه عابرا أمامهم في صمت.

انتزعه صوت موظف الأمم المتحدة مرة أخرى، من أفكاره وتخيلاته:

– أسـتاذ عجبـين، أخبرنا عـن الوقائع التـي أدت إلى تكفيرك وإهدار دمك.

– ذكرت لك سابقا، أن ذلك تم في مناظرة استغرقت عشرة ساعات، لم أتوقف خلالها عن الحديث إلا بطلب « منهم « ليتمكنوا من أداء صلواتهم. كانت المناظرة عن العلمانية والدولة الدينية. وقد أزعجتهم كثيرا، إلى درجة أنهم حاولوا إفسـادها بالتهليلات والتكبيرات، وعندما فشلوا طوقوا المكان بالهتافات، وقاموا بتكفيري وإهدار دمي.

– لكنك لم تعتقل ولا تزال على قيد الحياة ؟!..

– لم يتمكنوا من إعتقالي. إذ تمت حمايتي وتهريبي بواسطة التنظيم.

– لكنك قلت أنك تركت التنظيم.

– حدث هذا فيما بعد، إذ انقسم التنظيم ولم أشأ أن أصنف ضمن أيٍ من القسمين، كما آثرت نشر أفكاري عبر الندوات والمقالات. وكنت ألبي أي دعوة توجه لي كي أحاضر وأحاور.

– ألم يحاول التنظيم إستعادتك.

– كل القسمين فعلا ذلك. لكنني أصررت على موقفي الرافض للتنظيم.

– هل تعتقد أن السبب في استهدافك بالقتل هو الندوات أم المقالات؟

– اعتقد أن كل أنشطتي بما في ذلك أشعاري الثورية هي السبب.

– لكن عمليا لم يحدث لك شيء.

– لو بقيت لفقدت حياتي، لكنني هربت. ثم أنني عانيت نفسيا من الحصار النفسي، الذي ضربه حولي أنصاف المثقفين وأرباعهم، شوهوا سمعتي وأقوالي وأفعالي. فعلوا أسوأ مما فعله جهاز الأمن.

– إذن تتهمهم.

– لا أتهمهم هم. بل الثقافة التي أنتجتهم، هذه الثقافة التي تنطوي على فكرة التآمر بصورة صارخة..

5

خلعت هناء فستانها. خلعت جونلتها الشفافة، أبقت فقط على الكلوت والمنهـدة، وأخذت ترقص بجنون على إيقاعات الجاز المحمومة، المنبعثة من جهاز السـتريو الصـغير.. رقص عجبين معها بذات الجنون.. رقصـا معا في لهفة وشـغف حتى نال منهما التعب، فارتميا على السـري منهكين، لاهثي الانفاس.

هدأت أنفاسهما قليلا فدفعت هناء برأسها إلى صدره، واخذت تداعب أصـابعه التي أخذت تتسلل وتغوص بعيدا، وتتنقل لتعبث بأزرار منهدتها، وتعاود الغوص مرة أخرى، وبصـره يتعمق في الذاكرة، مع تسـحبات أنامله إلى مواطـن الدفء المنتفخـة. يتعمق في ذاكرة نائية، حيـث الهواء منعش وأشـعة الشـمس دافئة، تغمر فناء البيت الصـغير وتتخلل شـجرة السنط العجوز والورود والأزهار، في الأصص المنتشرة في كل مكان من الفناء.

كانت الشـجرة العجوز تجف، تصـفر أوراقها، تيبسـ. تتهاوى إلى قطع صغيرة، تشتعل فيها النار فتئن أنينا شديدا، كأنه إنفجار مكتوم. ثم لا يلبث رمادها يتبدى عن جذع ناهض بأغصـانه المتشـابكة، التي تخضر وتخضر، حتـى لتبدو ريانة بالحنين، الذي لا تخلو منه وجوه الأربعة الذين لا يزالون جالسـين، على أعتاب الليل، الذي يمضي بخطى متثاقلة، والصمت الذي

قطعته آخر زفرة، لا يزال يخيم دون أن يتجرأ أحدهم على قطعه..

هذا العواء الذي يشق قلب الليل، ساريا في فضاءات البلدة القديمة، مخترقا نافذة غرفة عجبين، مارقا مروق السهم من الرمية. هذا العواء الموحش، الموجع، يخرج من قلب حواري البلدة القديمة، ليلامس مسامعه دون أن يثير داخله أي استجابة..

انها لعنة الحياد. أن تكون محايدا في مشاعرك تجاه الناس، الذين فقدتهم أو فقدوك، أو أيا كانت التسمية: لا كره، لا حب ولا أي شيء سوى نظرة ثلجية باردة، ترميها خلفك بين آن وآخر، فهكذا يصبح للذكريات دلالة مختلفة، دلالة لا علاقة لها بالذكريات أو الحنين.

على الجدار الصلد لا يزال عجبين يحاول تعليق مرآته المشروخة، ينظر إليها فلا يرى ذاته. يتجسد أمامه حسنين التائه، مخرجا لسانه. محركا إبهاميه على أذنيه، يغطي المرآة المشروخة بملاءة رمادية، وهو يحاول طرد شبح حسنين التائه من خواطره الكثيفة.

في الأيام الخوالي لإتخاذه موقفا من صداقتهما وتأكيده القطيعة بالقول والفعل، حصل عجبين على حصته من الشعور بالحزن والألم، الى حد إستنزاف كل مشاعره، لم يبق له حتى ما يحزن به على مرارات أيام قادمات – ربما – لشدة لوعته وأساه شعر بأنه أهدر كل طاقة الإحساس بالفقد، وهكذا لم يعد عجبين هو الشخص ذاته ذاك الذي يهتم بتكوين صداقات.

جلس عجبين في مقهاه الإثير. آخيرا مضى كلاهما في إتجاهين متعاكسين.. هكذا افترقا دون ندم. دون مرارات معلنة. دون حزن مباشر، كما تمنى منذ أن بدأ يلاحظ التغيرات، التي طرأت على شخصية حسنين.

لم يكن ثمة أحد يتصوَر أن تأتي هذه اللحظة، على الرغم من أن الجميع كانوا يتوقعونها منذ وقت طويل، بسبب الإختلاف الواضح بين الشخصيتين، وعدم تكافؤ علاقتهما – حدث عجبين نفسه –..

فعجبين بقدر ما كان لطيفا ومهذبا، بقدر ما كان منطويا.. كانت حياته متشابكة مع ذاكرة البلدة القديمة. معقدة تعقد دروب البلدة وحواريها وأزقتها الضيقة. ليست ببساطة حياة حسنين، التي نهضت في الجرأة حد الوقاحة والإختلاط. لا يجد نفسه إلا في ضجيج المجتمع والمرح وتزيين عنقه ومعصميه بتلك العقود الخرزية الملوّنة. كان نموزجا للبرجوازي الصغير المتمرد على قوانين الطبقة الوسطى التي أنتجته، الطبقة الوسطى المسكونة بخزعبلات التمدين.

كان حسنين إذن يهتم بقشور الحياة وسقط أفكارها، دون أن يتمكن من عبور الخط الفاصل بين جوهرها والشاطيء الآخر لحياته، التي تتجلى فقط في المرآة المشروخة..

حياته المفترضة غير المتحققة في الواقع. كيف كان حسنين ينظر إلى عجبين قبيل إفتراقهما الوشيك. كان يراه كجاحد وناكر للجميل. نسى كل تلك الأيام، التي كان يلتقيه فيها، منهكا مكدود الوجه والخاطر بسبب

الإرهاق والجوع والتفكير الممض، فيطعمه ويواسيه. الوحيد الذي وقف معه مخففا عنه متاعب الحياة وهمومها.. لم يسأله شيئا إلا وأجابه. منحه من الحب ما لم يحلم به يوما. وبعد كل هذا يتنكر له الآن، ناسيا كل شيء « ياله من وغد !»..

يتنهد حسنين التائه في أسى، وهو يؤكد لنفسه « ليس ثمة سبب يجبرني على إحتماله. فلينتهي كل ما بيننا، وليذهب كل شيء إلى الجحيم «. كان حسنين يكرر لنفسه.

في هذه اللحظة ذاتها كان عجبين يتساءل: لماذا يجهد حسنين نفسه كل هذا الجهد، ليقلل من إحترام عجبين في نظر الناس، بهذه الطريقة الملتوية، والاساليب المراوغة الماكرة. هل من المعقول أنه يكرهه إلى هذا الحد المدمر ؟!.. وظل هذا السؤال على وجه الخصوص، معلقا في فضاء ذاكرة عجبين خشم الموس، دون إجابة محددة.

في كثير من النقاشات التي دارت بينهما، كان رد حسنين معلنا وجاهزا:

– أنت تتخيل ذلك، لأنك تتصور نفسك كإله.. أنت مجنون.. أقسم أنني لم أقصد الإساءة إليك..

الرد ذاته إثر كل خلاف، حول أساليب حسنين الملتوية، المراوغة..

يئس عجبين ولم يعد يهتم لأي حوار، مع حسنين حول سلوكه العدائي تجاهه. كان قد بدأ يشعر بأنه لم يعد للأمر أهمية على الإطلاق،

فحسنين لم يعد يعنيه كما مضى، بالتالي لا أهمية أو جدوى من خوض أي حوار معه. وهكذا أفترق عنه في صمت.

نشـأ عجبين في أسـرة ظلت تتقلب في ذاكرة البلدة القديمة، وحكاياها عن آل خشم الموس، كآخر أساطير الغرباء.الأمر الذي كان كافيا لأن يمنحه الإرادة اللازمة لصياغة قدر مختلف.

أمام مقهاه الاثير، يمر الماضـي في أشكال الناس وملامحهم. يغذي فيه الإحسـاس بالكرب كشاعر مسـكون بحمى الذكريات، وآلام الصراعات التـي رغم تقادم العهـد، لا تزال تخز دواخله كالشـوك القتاد، وهو يتوغل عميقا، عميقا أقصـى ثمرة الفـؤاد، مخلفا وراءه مزقا ودّم، يتشـكل منهما طيف صـديقه القريب / البعيد.. حسنين وهو ينحسر كموجة، موجة عاتية تأخذ معهـا بنايات البلدة القديمة، والناس وملامـح الزمن الغابر، فلا يعود لطيف حسـنين الذي أحب ذات يوم، من وجود سوى فيما تبقى من ألم، يحاول أن يتخطاه بكل ما وسعه.

اللحظات الجميلة التي عاشـاها معا، كانت في إحساساتها أشبه بمشاعر المحبـين، كأخويـن، أكثر من صـديقين. كرسـا لعلاقتهما، التي صـارت حديـث البلدة القديمة في المحبة والوفاء. كانـا لا يفترقان إلا للنوم، وأحيانا ينامان معا في بيت أحدهما، أو بيت صـديق مشترك. يشعر كل منهما بألم الآخر. هواجسـه، همومه حتى دون أن ينبث ببنت شفه، فما الذي حدث لتتعرض علاقتهما بعد كل هذه السنوات للشروخ والتصدعات، وتتلاشى شخصـيتاهما القديمتان، لتحل داخل كل منهما شخصية أخرى، لم تكن

موجودة من قبل، على أنقاض الشخصية القديمة.

زفـر عجبـين وهو يعالج في ذهنه تحولات حسـنين، التي أطلق عليها « الأزمة التاريخية للصديق المدعو حسنين «. انه لا يعرف بالضبط متى بدأت التحولات تعتري شخصـية حسنين، لكن ثمة محطات فارقة كانت تؤكد، أن ثمة شخص جديد يتشكل.

في لحظات صـفوّه يحاول أن يتغلب على ألمه، ويستعيد تلك المحطات الغارقة في شفق المغيب، فتقفز إلى ذهنه تلك اللحظة قبل سنوات، في قلب المحطة الوسـطى للبلـدة القديمة، حين أحتدم بينهما سـجال عقيم حول « الوجود والعدم «، فانفجر حسنين في وجهه، متهما إياه بالإلحاد.

كان سـجالهما هادئا عندما بدأ. لا يشـي أبدا بالإنفجـار الذي يطويه داخله، حتى فاجأه حسـنين بتنمره عليه دون سـابق إنذار. لا يدري حتى الآن ما السـبب الحقيقي، الذي جعل حسـنين – لحظتها – يمتليء بكل هـذه الروح العدائية.. ربما لأنه بدأ مؤخـرا، يهتم لأمر « الديانات الجديدة « التي أفرزتها «العولمة»، هذه الديانات العجيبة التي تسـللت عابرة القارات، كأن العالم تنقصـه مزيد مـن الديانات، أو بحاجة لأنبيـاء جدد !.. ربما أن لإنفجاره المباغت علاقة بتلك الطائفة السـرِّية، التي أصـبح أحد مريديها، فقط ليثبت لنفسه أنه شخص «مميز»، أو «مثقف» لا يمت للرجرجة والدهماء بصلة، أو أي شيء آخر من هذا القبيل.

كان مزاجـه قد تبدل فصـرخ في وجهه، بطريقة بشـعة في هذه اللحظة

بالذات: بين زحام الناس والعربات..

بعد سـنوات طويلة، عندما يسـتعيد عجبين هذه اللحظة، يستوثق أن حسـنين كان يتطلع إلى المعرفة، ولم يكن راضـيا بأداء دور المسـتمع الذي ظل يلعبه، منذ نجح عجبين في ترويضـه. وحاول مساعدته بأن مده بالكتب المنتقاة بعناية، وعمل على توجيه قراءاته . كان يحاول بذلك ان يؤسس فيه أرضـية مشتركة بينهما، لكن حسنين سرعان ما ملّ القراءة، فالقراءة عزلة، وهو لم يعتاد- في كل حياته التي لا تخلو من شجن -، على العزلة.. فكل حياته التي تبدأ في الصباح الباكر، ولا تنتهي آخر المساء، تنهض في الحركة تجاه الناس، ولقاء الأصـدقاء الجدد – دائما لديه أصـدقاء جدد – الذين سيصـبحون « قدامى « قريبا. وشـباب الحي السـطحيين الذين يحبهم – لأنهم يشعرونه بأهميته – اذن كان لا يجد نفسه إلا في هذه الحركة النشطة في قلب مجتمعه، المتنوِّع بكل فئاته.

بعد سـنوات عدة، ستبدأ تتكون في داخل حسنين مشاعر عدائية تجاه هذه الفئات، إذا يبدأ في « الظن « أن الآخرين يسـتغلونه لتحقيق أهدافهم، ويتنامـى داخله هذا « الظن « بصـورة مرعبة، ويتحوّل إلى هاجس، يشـعل فيه روح العداء- غير المعلن - أكثر فأكثر، تجاه مشـاريع الآخرين !!.. هذه المشـاريع التي يتصـور – لا يـدري أحد من أين جاء بهذا التصـوّر – أن الفضل في نجاحها، إنما يعود له وحده، هو شخصيا !!..

أول مرة تعرف فيها عجبين على حسنين، لم يروقه أبدا، إذ بدا له وقحا، فنفر منه. لكن حسنين ظل يلاحقه دون أن يدري لماذا ؟!.. فيما بعد أدرك

عجبين أن حسنين يحاول دائما أن يكون مقربا من الأشخاص الذين يعتقد أنهـم مميزون. لا يزال عجبـين يذكر أول لقاء فعلي لهمـا بعد أن تمكن من ترويضـه، محولا إياه إلى تلميذ نجيب، كما قرر في نفسـه وقتها. كان يجلس لحظتهـا في أحد البنشـات الخارجية لكلية الإقتصـاد والعلوم الإجتماعية، يقـرأ جورج أمادو في (الدونـا فلورا وزوجاها الاثنـان). لا يزال يذكر ذلك بوضـوح حتى الآن – عندما أقترب منه حسـنين يحييِّه، فلم يجد بدا من دعوته للجلوس. مدّ حسـنين يده يأخذ الكتاب. قلبه بين يديه وأعاده إليه. وهكذا بدأ بينهما الحوار الذي أفضـى إلى صداقة متينة، استمرت لسنوات طويلة.

6

كان عجبين منهكا من جدالات السياسة، وأركان النقاش والسجالات التي تفسر الماء بالماء. يشتهي حوارات أخرى. حوارات حقيقية في الأدب والشعر وأحوال المجتمع، وذاكرة الناس والأشياء والأماكن، وشظايا مرايا خشم الموس الكبير، التي أصابت الجميع حتى طيور الشجر، وأعشاب البرية التي تحيط أطراف البلدة القديمة..

كان يتكلم وحسنين يستمع باهتمام، وذاكرته تمتص الحديث، تحاول إعادة صياغته مرة أخرى بلغة أخرى، كان حوارا من طرف واحد، لكنه كان مميزا – لا يزال يذكر محاوره حتى الآن –.. بعدها بأيام دعاه حسنين التائه للمبيت معه، و أخبره رسميا أنه أصطفاه ليكون أستاذه.. وهكذا أصبحا ينامان في وقت متأخر من كل ليلة، بعد أن يكون عجبين قد إستفرغ في وجه حسنين، كل قراءاته في المعرفة والآيديولوجيا والأدب والفن. وذاكرة حسنين كالفلين تمتص كل شيء..

أول ليلة قضاها عجبين مع حسنين كان دهشا: كيف تخطر مثل هذه الأفكار الغريبة، على بال حسنين ؟!.. ففكرة أن يكون أستاذاً لشخص في مثل سنه لم تكن تروقه. بدت له غريبة، والأغرب منها «تعليم الشعر» لحظتها تلاشت كل ريبه وظنونه، حول معنى علاقتهما الوليدة، وأدرك أن

حسـنين يعاني في داخله صـراعا حادا. يريد أن يكون شخصا بإمكانه، أن يصـنع فرقا في الحياة.. ويتصور أن السـبيل الوحيد إلى ذلك، هو أن يكون شـاعراً أو كاتبـاً، إلى آخره من إهتمامـات رهيبة، تحيل حياة الإنسـان إلى عذاب وألم مقيم.

لم يكن يدري أن بإمكان أي شـخص، في أي مجال من المجالات أن يصنع فرقا. وحاول أن يقوده إلى هذه الفكرة بصبر وتؤدة.

7

تتضاءل ملامح البلدة القديمة. تتضاءل حتى تغيب لتحل محلها معسكرات «الدفاع الشعبي» و«أخوات نسيبة» و« المجاهدين الدبابين» و«شرطة النظام العام»و«هيئة الدفاع عن العقيدة والوطن» – تخرج داحس والغبراء من قلب تاريخ مقيت –، فينتشر الأيدز والحروب الأهلية في أطراف البلاد الكبيرة، ويصبح لكل شيء طعم آخر. طعم أي شيء سوى الذكريات الحميمة..

من قلب أطلال البلدة القديمة. على أنقاضها، تنهض المعتقلات السرية و«بيوت الأشباح « ومخابيء»الإرهابيين العرب» و« الجمعيات الإسلامية العالمية المتطرفة» فيصبح المكان، كل المكان، محض زنزانة ضيقة. حفرة مليئة بالبراغيث والهوام، يتمزق فيها الإنسان، ويتحوّل إلى أشلاء وبقايا من المشاعر والأحاسيس التي كانها.. هذه المشاعر التي يسقطها الهروب من مكان لآخر، والتخفي من الملاحقة والإعتقال .. هذه الأحاسيس التي تسقط في رحلة الهروب المستمرة. الهروب المحفوف بالمخاوف والتصورات المرعبة، التي ينبثق منها السجانون ومتعهدو التعذيب، في غرفهم ذات الإضاءات الخافتة.. غرفهم الجرداء إلا من أدوات التعذيب ومقعد خشبي قاس، يقيدونك إليه. يحرقون في جسمك العاري أعقاب السجائر،

يلسعونك بالكهرباء ويجرحون باطن قدميك بالموس.

مع كل إنتفاضــة من لسعة الكهرباء تفقد شــيئا جميلا، أحسست به ذات يــوم. مــع كل حرقة نار، تفقد جزءاً من مشــاعرك النبيلة تجاه البشــر – هكذا هم – مشاعرك التي كنت تكنها لهم بحماس، لهم ولاشيائهم وأماكنهم.. لهم وللمطر والشجر وطائر الجنّة الملوّن وتراب البلدة القديمة.

مــع كل ركلة أو ضــربة حذاء أو خرطوم مياه، أو قبضــة يد، تتلاشــى داخلك الذكريات التي كنت تكنهــا للناس، حتى الناس الحقيقيين.. فلا تعــود تتذكر من أنت، ومــاذا تريد أو كيف جئت إلى هنا.. كل ما تذكره هو هذه اللحظة التي تعيشــها ككلب أجرب، إمتلأ جسده بالقروح والتمزقات والألم..

الزنزانــة تنهض داخلــك، تفتح أبوابهــا كلما أســتدعاك أحد الوجوه الشــائهة، للتحقيق أو التوقيع على إعتراف مزعوم، بتفاصيل ليست لديك فكرة عنها. يهددونك بكل شيء حتى الاغتصاب، أو حشر زجاجات المياه الغازية ذات الحجم العائلي في مؤخرتك، وتبدأ تتصــور صعوبة الوضع: هل يا ترى ســيتمكنون من إنتزاعها إذا كبست بالهواء.. كيف يمكنهم تنفيسها ليخروجونها من مؤخرتك المســكينة، المهددة بالهتك، وتتســاءل – أهؤلاء هم الاســلاميون خبراء التعذيب هؤلاء ؟– وأنت تتمنى في هذه اللحظات المؤلمة لو ينتهي كل شــيء، حتى حياتك نفســها.. تتذكر ندوة دكتور الباقر العفيف عن الهوية عندما أكد: بعد التوصــل لإتفاق سلام، لم يكن لدى الجيش»الوطنــي» أســرى يبادلهم مع جيشــ الحركة الشــعبية، ذلك لأن

الجيش»الوطني» كان يقتل الأسرى..

لم يكتفوا بحرق الكنائس وقتل الأطفال والنساء والإغتصاب الجماعي. لم يكتفوا بإنتهاك كافة حقوق الإنسان، فاستحدثوا أساليب جديدة، مستلهمة من تراثهم الجاهلي ومن تراث نسبهم التركي المليء بالخوازيق !!..

.. وعندما يعيدونك إلى زنزانتك القذرة مرة أخرى، تتمنى لو أخرجوك من معتقل التعذيب، وأخذوك إلى السجن مباشرة لترتاح.. تتمنى السجن لترتاح ؟!.. تحاول التغلب على الألم، تجر جسدك لتتكيء على جدار الزنزانة، تبذل جهدا كبيرا لإستعادة ذاكرتك، فتطل بعض الوجوه: وجوه لنساء. وجوه لرجال. وجوه لفتيات شابات وشبان. وجوه تشعرك بأنك تعرفها. كنت بينها ذات يوم. تحاول إستعادة تفاصيلها، فتغيب في الضباب..

وفي الضباب تحاول ان تتذكر تفاصيل البلدة القديمة دون جدوى، لا تذكر سوى اسمها، يربطونك إلى الشجرة، يسألونك.. يسألونك عن كل شيء.. يرهقونك بالأسئلة المتلاحقة:

- لا أدري، لا أدري..

فيشتد ضربهم لك بقسوة أكبر. يتلاشى الألم مع تكرار الضرب. لا. لا يتلاشى، فقط يتخدر الجسم، فلا تعود تشعر بالألم. تتساءل عن معنى الألم. الالم ليس مجرد كلمة مفردة. إنه هذا الضرب. هذه الشتائم المقذعة. هذا الإزلال.. «الألم «..

مــن « الألم « كفكــرة (ذات) في عــالم الأفــكار، إلى ألمــه الآن.. هذا (الموضــوع) – هو.. موضــوع لمشــروع تلك الذات البعيدة في ســرمديتها، وعالمها الأرخبيلي الســديمي، حيــث البرزخ الذي يحيط عــالم الأفكار.. مثلما كانت دائما وتكون فكرة البلدة القديمة ك(آخر) «موضــوع» لمشــاريع (ذات).. ذات هنــاك يتجلى موضــوعها في البلدة القديمــة. هذا الإنعكاس في شــروخات مرآة خشم الموس الســحرية. هذا الشرخ الذي يعوق ذاكرته ووجدانه الآن، فتتبدى ملامح هناء غامضــة كغيرها من الملامح المترحلة في عالم الأفكار..

غموضــ ملامح هناء يأخــذ طابعه من غموض معنــى الألم. غموض سيلان النزيف في الجرح المتجدد. غموض إحتضارها وهي تجهض جنينهما وتموت، تمضي الى الأبد، كأنها لم تكن يوما..

من الألم صاغ حسنين التائه عبارة «حتى الرمق الآخير» لتحكم عالمه الــرث البائس، الذي يديره كإلــه. يتحكم في مؤامراته الخفية. في نبضــاته وسكناته. في خفقاته وتشظياته.

مــن الألم خرجــت وها أنــت تعود. لا تقــوى على المشــي بقدميك المجروحتين، فيحملك سجانوك إلى غرفة التعذيب، عند منتصف الليل من كل يــوم. ولا يتركونك إلا كخرقة بالية عندما تتســلل خيوط الفجر الأولى الكوّة أعلا غرفة التعذيب..

– أســتاذ عجبــين، قلت أنك أسســت مــع آخرين جماعة « كســتاليا

للآداب والفنون « ما معنى كستاليا ؟.

– النبع الصافي، في اللاتينية القديمة.

– كيف سمحوا لكم بتسجيلها وقد ذكرت في طلبك ان كل الجمعيات التي لا تنتمي إليهم لا يمكن تسجيلها ؟

– لم تكن مسجلة لديهم. قمنا بتسجيلها في اليونسكو، كأحد الأندية التابعة للمركز الدولي للعلوم والفنون. ولهذا السبب بالذات تم إتهامنا بالعمالة.

– صف لنا كيف تعرضت لحادث إغتيال.

– أنا استنتجت أنها محاولة إغتيال.

– صف لنا هذه المحاولة.

– تعرضت لثلاثة مرات في ثلاثة أيام على التوالي في مارس 1993 لمحاولة الدهس بعربة دبل كابينة تايوتا، لا تحمل لوحة أرقام، وأنا في طريقي من محطة المواصلات إلى البيت. حوالي الساعة الثانية عشرة ليلا. لا يمكن أن تكون هذه المحاولات الثلاثة مصادفة. الصدفة لا تتكرر.

– قلت أن الوقت كان ليلا. كيف رايت أنها بلا أرقام ؟

– الميدان الذي تم فيه ذلك يفصل منزلنا عن محطة المواصلات. وهو ميدان مضاء.

– ماذا حدث لك في مايو ؟

– تم استدعائي.

– لماذا ؟

– لمشاركتي في ندوة حول « الديموقراطية والإثنية».. ذكرت ملاحظة عابرة حول أهالي هذه البلاد، بأنهم عندما يموت طفل في لبنان أو فلسطين أو العراق، ينهضون جميعهم بأطفالهم ونساؤهم في المظاهرات والمسيرات، يدينون العدوان الغاشم على شعب «عربي شقيق». بينما قواتهم تقتل الأطفال والنساء وتقوم بالإغتصاب الجماعي في دارفور، ولا أحد منهم يخرج ليهتف ضد ذلك. ففلسطين والعراق ولبنان أقرب إليهم من بني جلدتهم في الجنوب أو دارفور. بل ان كتابهم وقادة رأيهم العام يكتبون المراثي الطوال في الأوضاع الإنسانية المتردية في غزة وبيروت وبغداد، لكنهم لا يجرؤن على الكتابة عن مأساة الهامش الفادحة. قلت أن الجميع متورطون، وأنهم لا يرغبون في إدانة أنفسهم، فهم موافقون على ما يفعله جيشهم من إبادة للابرياء والعزل. قلت انهم بحاجة للمعالجة النفسية.

– شعب بكامله بحاجة لعلاج نفسي ؟

– إذن كيف تنظر لمن ينكر هويته ويدعي هوية ليست له ؟

– ما هي التهم التي وجهت إليك ؟

– إثارة النزعات العنصرية، والإرتباط بجهات أجنبية والعلاقة بحركات

مسلحة.

– هل انت كذلك ؟

– لا.

– هل تم التحقيق معك بمجرد أن استجبت للإستدعاء ؟

– لا. تم التحقيـق معـي بعد 6 أيـام إذ انني عندما حضـرت في اليوم الأول، أبقوني منتظرا في الاسـتقبال 5 سـاعات. صـرفوني بعدها دون أن يوجهـوا لي سـؤالا واحدا. فـكل ما ذكروه لي ان الضـابط المسـئول عن التحقيق معي، غير موجود الآن. وأمروني بالعودة صباح اليوم التالي، حيث تعاملوا معي بذات الطريقة، وهكذا تكرر هذا الأمر لخمسـة أيام، وفي اليوم السـادس أدخلوني إلى أحد مكاتبهم، حيـث تم التحقيق معي. بعد ذلك قاموا بضـربي في الفناء، الذي يفصـل الإسـتقبال عن المكاتب والزنازين. وهددوني بالقتل، ومن ثم أطلقوا سراحي.

– حدثنا عن آخر إعتقال لك ؟

– في 30 يونيو 1996 وبعد أن شـاركت في منتدى سياسـي عن « بروز النزعـات الجهوية في الجامعات « تم إعتقالي وأنا في طريقي إلى البيت حوالي منتصـف الليل أو بعد ذلك بقليل. إعتقلوني من الشـارع، إذ توقفت عربة دبل كابينة لاندكروزر قربي على نحو مفاجيء. خرج منها ثلاثة أشـخاص. دفعـوني إلى داخلهـا. لا أعرف المـكان الذي أخـذوني إليـه، إذ تعمدوا إجلاسـي منحنيا ويد أحدهم تقبضـ على عنقي من الخلف. أخذوني إلى

مـكان لا أعرفـه. وبعد أن تم ضـربي بخراطيم المياه وتوجيه أقذع الشـتائم والركلات والتهديدات بالقتل، اطلقوا سراحي وأنا في حالة يرثى لها، مساء اليوم التالي. حملـوني غائب الوعي. ورموني في المزارع عند أطراف البلدة القديمة.

- كيف تصرفت بعد ذلك ؟

- شـعرت بأنهم جـادون في تهديداتهم، وأنهم لا محالة سـيقتلونني. فتعاظم في داخلي الإحسـاس بالخطر، الأمر الـذي دفعني إلى تغيير محل إقامتـي، والإختفاء والتخطيط لمغـادرة لا البلدة القديمة فحسـب، بل كل البلاد الكبيرة.

8

خرج عجبين من المقابلة متعرقا مستنزفا. وجد ليلى لا تزال تنتظره بعد أن فرغت من إجراءاتها..

– ها.. كيف كانت مقابلتك ؟

– أرهقنـي الموظف كثـيرا. وحدد لي مواعيد أخـرى لإعادة التوطين. وأنت أين تمت إعادة توطينك.

– أميركا. عقبالك.

– مبروك.

ومضيا في صمت إلى محطة المواصلات، في شارع جامعة الدول العربية. كان الصـمت الذي لم يجرؤ أحدهما علـى قطعه، ينطوي على الكثير من المشـاعر والأحاسـيس الدافئة. بدت ليلى إلى جواره كتلميذة حييّة تهرب من عيون رفيقاتها، في نهاية اليوم الدراسي لتلقي حبيبها، الصبي الخجول، فيختلسان النظر إلى بعضيهما، دون أن يحاول أحدهما العبور، بحميمية إلى الطرف الآخر، حيث هنالك كفان ممدوتان تنتظران ملامسة دافئة.

منذ قررت ليلى الإنتقال للعيش مع عجبين في شـقته الصـغيرة، وهي

تحاول إستعادة مشاعرها المنهوبة. مشاعرها التي فقدت حيويتها منذ تلك الليلة حالكة السواد، التي داهموا فيها منزلها، وقادوها إلى معتقلهم الموحش الرهيب..

تناوبوا إغتصابها داخل غرفة التعذيب. كان عددهم يزيد في كل مرّة، وكانت احشاؤها تتمزق. لم يتركوها إلا بعد أن بدأ سائل صديدي عفن يسيل من داخلها. وعندما أطلقوا سراحها بعد شهر، كانت منهوبة. منهكة. ومتهالكة كقلعة مهدمة. لم تعد هي ذاتها. لفظتها أسرتها. لفظها حبيبها. لفظها تنظيمها الذي أعتقلت في سبيل أفكاره- لدواعي أمنية -، متهماً إياها بالخيانة. أغلقت كل الأبواب في وجهها، ففكرت في الإنتحار. وكلما تراجعت. كانت تجربة التعذيب القاسية قد أصابتها بجبن لم تعهده في نفسها. جبن منعها من قدرة التخلص من روحها. فقررت الهرب، ومغادرة البلاد الكبيرة.

كان عجبين يحاول تضميد جراحاتها. يحنو عليها. تتفجر في داخله طاقات من الحنان، لم يكن يتصوّر أنه لا يزال يتمتع بها.في واقع الأمر كان كل منهما يعالج في الآخر جرحاً لا يزال مفتوحاً، على الأشباح والذكريات وأحلام اليقظة والكوابيس..

جرح غائر يصعب دمله. يصعب شفاء آلامه. لكنهما ظلا يحاولان ترميم هذه الكسور، وجمعها إلى بعضها. ويدركان صعوبة لحمها من جديد. فعندما تتضعضع دواخل الإنسان، تتهشم. يصبح من الصعب لملمتها من جديد، وترميمها. من السهل جدا تحطيم إنسان، لكن من الصعب إعادة

بنائـه مرة أخرى. ومع هذا الإدراك كانا يصـران أكثر، على لأم جراحاتهما التي لا تزال نازفة. جراحاتهما الغائرة، كغابة خشـم الموس في ذاكرة البلدة القديمـة. هذه الغابة التي غاضـت بها الأرض، فتلاشـت عن الوجود، ولم يتبق منها سـوى شجرة السنط العجوز. هذه الشـجرة التي يحاولان الآن رعايتهـا بهـدوء وروية، فهـي ذاتهما التـي أنهكها الحنين وجور السـنين. بالتجارب المريرة وعذاباتها التي لا حد لها.

تمددت ليلى تحته، كما كانت ترقد غابة خشم الموس الكبير، في ذاكرته المنهوبة. تمددت كأميرة مسـتغرقة في قيلولة الظهيرة، على أريكتها الحميمة، وهي تحلم بين الوسن والنوم العميق، فترى فيما يرى النائم دفئا ناعما يبلل بوحهـا. يجيؤها به ولي صـالح، يهبـط من عالم الأفـكار، ليخترق غفوتها، ويلهب أحاسيسـها ومشـاعرها.. إلى آخـر حكايات الغرام، المشـبوب في اليقظة والإستيهام..

تـراه في قيلولتهـا، وهو فوقهـا كالغمام، يحدثها عـن جمالها.. جمال العينـة.. عيني نوار، في تمثال الرخام الصـغير، وكيف تطفـو فيهما الأفكار والأحاسـيس والمشـاعر، مثلمـا تطفو المويجات على سـطح النهـر.. تفرغ الغمامـة تشـنجاتها، تروي بوح اليقظـة الحالمة. ونوار عروسـة النيل البكر، تنأى ليبقى طيفها وحده.. طيف ليلى، التي يداعبها شـجرة فشجرة، غصنا فغصن، ويهم بتقبيل طائر الجنة الملوّن وتهم به، فتتلاشى الغيمة. تصحو فلا تجد شيئا حولها. لا تجد نفسها سوى في شجرة السنط العجوز، التي تمر عليها الشـتاءات الكئيبة. شـتاء إثر شـتاء، فتنتاب المكان تحولات عدة. يختفي

عالمها الذي ألفته لعشــرات السنوات، حتى طائر الجنة الملوّن يختفي. يحل محله غراب أســود اللون، ينعق مؤازراً ساكني القبور. ينعق ليصحو الموتى ويموت الاحياء.

تصــحو ليلى، تتلفت حولها في غرفتها. لا أحد. لا شــيء ســوى بلل. محض بلل. بلل محض، فتدير رأسها إلى الجدار.

٩

وهج من الضوء يغمر الشقة الصغيرة. لفح من الحرارة اللاهبة. يتخلل الجـو لهاث بطعـم أنفاس ليلـى، فيغرق عجبـين في اللهاث. شـعور قوي ينتابهما. نظراتهما المنكفئة، تمسـك بكل خدرها تلابيب بعضـها البعض. تنحسر أجفانها شيئا فشيئا إلى ذاتهما، ليذوبا في كل شيء حولهما، فتنفتح نوافذ الشـقة الصـغيرة. تهب لفحات الهواء القاهري المشبع بدخان عوادم السـيارات. تتطايـر الثيـاب الداخلية علـى الأنتريه والموكيت في الصـالة الأنيقـة. يـزولان معا عن هذا الوجود، كضـوء شـمعة ختمت تراقصـاتها تيارات الهواء الباردة. شـمعة ينكشف ضـوؤها المتبدد، عن وردة أحلامها المطبقة كالبرعم في إحكام، تفتح نفسـها عن الظلمة تدريجيا، ببطء شديد. يعلـو ظهر عجبين وينخفض وكممر صـغير محتقن بالماء، ينحت مصـبه في هدوء. وليلى تتأوه، وشيرين تغني: آه يا لييل.. آه يا عيين...

10

العزلة الحميمة التي ألفها عجبين تتلاشى وهو يتورط شيئا فشيئا في عالم حسنين المليء بالعلاقات المشوّهة، علاقاته بأشخاص وقحين، مؤذيين يسميهم « أصدقاء». هذا العالم غير المألوف الذي لم يعتاده أبدا. فحاول أن يخلق لنفسه هامشا بعيدا، ياويه دون صدام مع حسنين. لكن حسنين دون أن يدري كان يهشم هذا الهامش، باحتلاله وأصدقاءه، الذين كان يشكل معهم شلة كبيرة، من الوسيمين والجميلات. وكان كلما رآه أحدهم منزويا في مكان ما، داخل اسوار الجامعة، يقتحم عليه عزلته ويقحمه في مشكلاته المزعومة، بعد أن يتأزم أمامه ليحصل على تعاطفه.

هؤلاء الأصدقاء، هم ما أصبح عجبين بعد وقت طويل يطلق عليهم « الأصدقاء القدامى»..

أولئك الأربعة المسكونين بذاكرة البلدة القديمة، وتفسيرات الجنون. الأصدقاء الذين كان عالم عجبين وحسنين يعج بهم. هؤلاء الذين كانوا جماع متناقضات الذات الإنسانية، المعذبة والمشروخة في قوتها وهشيمها، وغثيانات ذاكرتها المعبأة بالهواجس والظنون والأوهام التي لا بداية أو نهاية لها.

كان عجبين ينظر إلى هذا العالم مرتاعا كالمرعوب من شيء غامض، لكنه مخيف، لا مرئي، كالموت. شيء يراه في عيون هؤلاء الأصدقاء، كعذاب ضبابي بين ألم الروح وبهجتها، تتفاوت ضبابيته من عيون لأخرى. ففي عيني ليمياء اللامعتين بلذة النميمة، هاتين العينين اللتين عندما لا تجدان ما تريانه في الناس من أسرار لتكشفها على الملأ، تصابان بالإلتهاب والقذى، تماما كذلك الشغف الخفي في عيني هدى وحسنين التائه.

كانت ليمياء ذات روح إستبدادية غريبة، لا أحد بالضبط يدرك أبعاد أو جذور هذا الإستبداد، في نفسيتها، التي شكلتها الأكاذيب والغرور والحسد. ربما تشكّل كل ذلك، كتعويض نفسي عن عالم مفقود.. عالم لطالما تمنته، وأجتهدت لتحقيقه دون أن تنجح في ذلك. عالم حبها له. جعلها تكون مع الجميع وفي ذات الوقت ضدهم. تستخدم في تغييب هذا الخط الفاصل بين «المع» و» الضد» عن عيون الآخرين جمالها الساحر، كسلطة – مسخ. أو طمث لحقيقة موقفها من هذا العالم، الذي تنهض فيه بقامتها الفارعة، كاحد أكثر جنيات خط الإستواء سحرا.

لجمال ليمياء وقامتها الفارعة غنى أطفال اليسار كورالاتهم – وزعموا أنهم يغنون الوطن الحبيبة – وعندما أدركوابعد وقت طويل أنانيتها، وإصابتها بكل أدواء التاريخ والجغرافيا، دبجوا على صفحات الجداريات المقالات الطوال، التي تنادي بإسقاط الطاغوت، مستخدمين هذه المفردة بالتحديد»الطاغوت» التي لطالما أحتجوا على إستعمالها لدى «مراهقي اليمين» الذين كان يطيب لهم إستخدامها بعد أن يمسحوا زعانفهم بعناية..

خاطبت ليمياء بجمالها أشواق كل أفراد الشلة، وهي تمرح كعصا وجزرة في آن واحد. تدفعهم للظمأ وتتحول الى سراب بقيع، حتى يئسوا فابتكروا مفردة» ماما» لندائها- متماهين في مأزق أوديب، فقط في طبعة جديدة -، لندائها، كحيلة يدارون بها فشلهم الذريع في وصالها.

اللعينة نالت منهم جميعا، بسلطة مفاتنها التي غيبت عقولهم، وجعلتهم يمررون مخططاتها الاستبدادية، في الهيمنة على الشلة.

كانت ليمياء تشعر بفيض غريب من الغبطة، عندما ينادونها»ماما» إذ دعم هذا النداء قدرتها على التخطيط لحياتهم، والحلم بدلا عنهم.

عندما تجلس إلى حسنين التائه كانت تشعره بأنه عاشقها الوحيد، فيرتبك ويرتج كيانه. ينسحب مفسحا المجال لعاصم، الذي تستدرجه مثلما تستدرج كلباً بقطعة لحم عفنة، فيتسحب وراءها إلى الغابة التي تنهض في قلب الجامعة. يجلسان. تكشف عن ساقيها الممتلئين، وفخذيها الدائريين، وما أن يتهدج صوته ويقترب منها، حتى تبدأ في الصراخ، فيتجمع طلاب الدراسات العليا، وأفراد الشلة يتساءلون:

- ماذا حدث.

- عاصم تحرش بي..

وتبدا في الفضيحة المثيرة..

وهكذا تخرج سيرة عاصم من إطار الشلة الضيق، وتصبح على كل

لسان، كانت قد استهدفته. احكمت عليه الحصار، وصوبت نحوه بإحكام. دون أن تدرك أنه بلا سـمعة نهائيا، كي تقضـي عليها.سمعة عاصم كدون جـوان جعلت الجميع يصـدقون إدعاءاتهـا، ويكذبون براءتـه، وزعمه بأنها أستدرجته إلى فخ.

الإقصـاء الذي مارسـه أفراد الشـلة على عاصـم، لم يبني في داخله الإحسـاس بالنبـذ، إذ كان هؤلاء الذيـن قاطعوه علنا قد ارتبطوا به سـرا، كل علـى حـدة في علاقة مريبة. حافظ عاصـم على سـرية هذه العلاقات بمهارة. فهو لم يكن يشـعر بالنبذ أو الندم، فبطبيعته اللزجة التي تستجيب إلى الطين، في داخله أكثر مما تسـتجيب للنور، شـعر بأنه تحرر آخيرا من هذه الخزعبـلات، التـي تتحكم في عالم هذه الشـلة. كان سـعيدا، وبدا ذلك غريبا حتى لحسـنين التائه. العراب الحقيقي لهذا العالم المعقد، المتشـابك والشائك. هذا العالم المتشظي..

11

عاصــم أشــبه بالممثلين، وعلى الرغم مما تبدوعليه بنيته الجسمانية من ضــعف كان صــاحب نزوات شــبقية عنيفة، زكمت رائحتهــا كل الأُنوف حوله. خاصــة عندما حبلت منه إحدى زميلاته، فمــا كان منه إلا أن أنكر علاقته بها. الأمر الذي جعلها تشــعر بخذلان وغبن لا حد له، سمم جروح إجهاضها ودمها فماتت حســيرة، مخلفة وراءها آلاف اللعنات على عاصم وجنسه.

منذ صــباه كان عاصم يعاني نوعا غريبا من القلق والتوتر، دفعه للتنقل من تنظيم إلى آخر من أقصــى اليمين إلى أقصــى اليســار، وكانت تنقلاته بحد ذاتها موضــوع تساؤلات وســجالات، إذ لم يكن يخرج عن تنظيم أو ينقســم على آخر، دون ضجيج وضوضــاء. هذه الضوضاء التي كان يثيرها حول خروجه او دخوله تنظيم ما. كانت تؤكد على شــعوره الخفي بالضآلة، وحاجته للبروبوقندا، كنوع من التعويض النفســي لذات قدراتها أضــعف، من المضــي حتى النهاية. في هذه البروبوقنــدا كان دائما يجد متعاونين من الرجرجة والدهماء، أو معاونين مثل حســنين التائه، وأيمن وأشــباههما من أرباع المثقفين. خاصــة أن أيمن كان ممن إرتبطوا به في علاقة ســرية لم ينجح أحــد في فهمها، أو فك طلاســمها، لكن مــن المؤكد أنهما كانا يســتعينان

ببعضهما البعض، في كثير من الأمور المشبوهة، ذات الصِّلة بالتزوير للأوراق الرسمية، والترويج للمخدرات والقوادة. ما يدعم الإتجاه الذي يشير إلى أنهما كانا، على رأس شبكة غريبة بعلاقاتها الأمنية، مخصصة لإستهداف الطلاب ذوي الانتماءات السياسية.

في الواقع كان أيمن يبدو كشخص بسيط في سلوكه ومعتقداته وعلاقاته، وسلس القياد. لكن مما لاشك فيه، أنه كان يخفي خلف هذا المظهر نوعا من الذكاء الإجرامي الفريد. وربما هذا ما أدركه فيه عاصم، ودفعه لإستدراجه إلى عالمه المتعفن، فشكلا معا ثنائيا غريبا بغموضه. لم يلبث أن جذب الصديقين الآخرين، فأصبح أربعتهم يشكِّلون دائرة مغلقة، لم يتمكن أحد من فتح ثغرة فيها، وظل هذا الجانب المعقد من حياة عاصم وأيمن بالذات، مخفيا بعناية وسرية عالية، لا يستطيع أحد الجزم إزاءها، أو البت في أمرها، وإدعاء أنه أدرك مفاصلها. لكن ما شاع بعدها، وبدا شبه مؤكد، هو أن عاصم ضابط في الأمن، ومسئول عن الاختراقات التي حدثت في قطاع الطلاب. وفيما تناولته التحليلات من قبل أعضاء الشلة حول أيمن، أن علاقته بأمل ما كانت لتنهض لولا الجهود الجبارة التي بذلها عاصم في سبيل ذلك..

فأمل الفتاة الساذجة التي نشأت وفقا لنظام تربية كلاسيكي قاس يرتكز على (آيديولوجيا العيب والعورة). فكانت الجامعة والعمل هما المتنفسان الوحيدان لها، للشعور بأنها إنسان له خياراته المستقلة في الحياة.

هذا الكبت الأزلي الذي تراكم داخلها. تفجر. فتناثرت أشلاء خجلها

وحيائها. الأمــر الذي أنتهى بها للإكثار من إســتخدام العقاقير والأقراص المانعة للحمل.

علاقة أيمن بعاصــم لم تؤثر على علاقته الشخصــية بعثمان ونازك. ربما بســبب تاريخية علاقتهمــا، فهي منذ الطفولة، ومراحل الدراســة المختلفة، وطــوال هذه الفترة الطويلــة ظل عثمان ميالا للهيمنة علــى أيمن. ربما ذلك بالتحديد ما أدى إلى إنفصام علاقتهما، في عدد من مراحل حياتهما.

عندما تعمقت علاقة أيمن بعاصم أزعج هذا الأمر عثمان كثيرا، إذ شعر أن أيمن يتمرد على ســلطته التاريخية عليه..، الأمر الذي دفعه لمحاولة عزله عن كل الأصــدقاء وتشويه سمعته، لكن لم يســتطع إطباق الحصار عليه، وبعد ذلك عادت علاقتهما، إلى سياقها الطبيعي «ظاهريا « في محاولة دؤوبة منهما، لتخطي أزمة علاقتهما، تســاعدهما نازك في تلطيف الأجواء بينهما، فهي بطبيعتها الرقيقة كانت تكره أجواء التوترات.

هذا الميل للهدوء عند نازك هو ما جذب عجبين إليها، والتقرب منها دونا عن كل الآخريات، الأمر الذي كان يثير حفيظة ليمياء، التي كانت «تظن» أنه يترفع عليها، مغالبة مشاعرها الدافقة تجاهه دون أن تنجح. ولذلك عندما شعرت بهما يقتربان من بعضــهما كثيرا، استعانت بهدى واجتمعتا بنازك، فأوغرتا صــدرها ضــد عجبين. لا يدري عجبين حتى الآن ما الذي «قالتاه» لها عنه بالضبط.. لكن ما لاحظه بعد ذلك على نازك، هو أنها أصبحت كلما جلس إليها، تحرص على لملمة ثيابها على جسمها، كأنها تخشى أن يهجم أو يعتدي عليها، وهكذا بدأ البرود يتآكل علاقتهما، وعندما اســتوثقت هدى

أن مـا يربط بين عجبين ونازك أصـبح فاترا، محفوفـا بالهواجس والمخاوف والظنون، بدأت المشاعر المنسية داخلها تستعيد مكانها أعلا طاقات القلب. فهـدى منذ وقت بعيد تكابد حبها المقموع لعجبين، وتتربص مجرد فرصـة مناسـبة، لتشـعل الحرائق في كل الأمكنة الموعودة. لكنها لم تجد ثغرة أبدا لتنفيذ خواطرها السرّية، يعبر من خلالها هذا الحب المجنون إلى عاجبين في شـاطئه الآخر ليحاصره، فيحسه بوضوح.خاصة انها ولادراكها طبيعة حياة الشلة، حرصت على أن لا يبدو عليها أنها تكن أي نوع من المشاعر الخاصة تجاه عجبين، فأخفـت حبها المعذّب، ونجحت في الإلتفاف على الملاحظات الثاقبة لليمياء.

في تلك الأيام أصـيب عجبين بحزن لا مثيل له، حتى أنه لم يصـدق فيمـا بعد، أنه تمكن من تخطـي هذا الحزن الكبير. وفي لـب هذه الأحزان سنحت لهدى فرصة يتيمة للتعبير عن حبها له..

- كيف وأنت تحبين عثمان ؟

كان دهشا لا يصدق ما يسمعه.

- بل أحبك أنت. ولم أحب سواك على الإطلاق.

لكن عجبين ظل وفيا لعلاقاته، ولم يسـتجب أبدا لتحرشـات هدى، التي تلت إعترافها الحار، ومضـت تشعر بغبن وميل كبير لإيذاءه، فأخبرته أنها وليمياء وراء إجهاض مشـروع علاقته بنازك، فتعاظمت داخله الأحزان أكثر فأكثر.

هـذه الأحـزان التي لم ينجـح في تخطيهـا إلا بالغرق في عـالم هناء المحاصر بأبخرة الجنس والجنون.

هؤلاء هم الأصـدقاء الأربعة: أيمن، حسنين، عثمان وعاصم.. وهذا هو عالمهم الذي لا يزال كما هو، تمر عليه الخرائف والشـتائات، ويمضـي صيف فآخر وهو – هو ذاته..لا تغشاه عوامل التعرية فيصبح أثرا دارسا..

في هذا العالم ينتصب حسنين كأبو الهول .. ينتصب كدون كورليوني، العراب جالسـا على عرشـه المهيب، يدير الجميع في خبث ودهاء.. دون أن يسـتطيع أحد إثبات ذلك، فقط يستشـعرون أصـابعه الخفية التي تحركهم مـن خلف الكواليس كدمـي.. حيث يبدو كل شـيء في الظاهر طبيعيا، وكأن أشـخاص سـواه يديـرون هذا العـالم المعقد لهـذه المخلوقات، التي أصـبح إسمها بعد سنوات طويلة « الأصدقاء القدامى» فحتى عندما جرت الوقائع والأحداث البارزة، كأزمة التحرش بين ليمياء وعاصـم، باصـدائها التي تشـبه فضـيحة ووتر جيت، أو مؤامرة إجهاضـ علاقة عجبين بنازك، والتساؤلات الحارقة حول العالم المريب لعاصم وأيمن، إلخ، إلخ.. لم يخطر على بال كثيرين أن لحسنين التائه، دور في هذه الوقائع والأحداث. بل ظن عجبين أن النظام المثالي الذي يحكم الشـلة، إنما قوضـه هو بمكاشـفة أفراد الشـلة بما هم عليه – لاعبا دور طبيب نفسي جهبوذ – لكن في الواقع كان حسـنين – كما يظن عجبين – يمني نفسـه بلعب دور أكبر في حياة الشلة، إذ أن كل شيء حدث كان وفقا لمشيئة حسنين، حتى العالم المشبوه الذي تورط فيه عاصـم وأيمن، على عكس ما كان عجبين يتصـوّر، كذات متعالية

ومدركـة، ويكرر لنفسـه في الأوقـات التي تداهمه فيهـا الذكرى، بطيوف متلاحقة لأفراد الشلة وذاكراتهم وعوالمهم الهشة المنهوبة، والنابضة إلى حد الخفوت والتلاشـي، كفقاعة ضـوء لا تلبث أن تنطفيء، فلا تخلف وراءها سوى الفراغ الحالك، وغثيان الظلام والصمت، وإيحاءاتها بشبح المخاوف، والقرناء الذين يملأون مثل هذا الفضاء المعطون، في ظلمة مبتلة.

12

لم تعرف حياة عجبين في القاهرة أي درجة من درجات الإستقرار، إلا بعد أن إلتقى ليلى. كان مسكونا بالقلق والتوتر، وحمى الإنتقال من مكان لآخر، تنقل في: الزاوية الحمراء، الدرب الأحمر، عابدين، عين شمس، ألف مسكن، الجيزة، المهندسين، الدقي، الفيصل، العاشر، الحي السابع، 6 أكتوبر والسيدة زينب. ولم تشهد حياته إستقرارا، على مكان محدد لأكثر من شهر، وربما أسابيع عدة أحيانا.. إلى أن إلتقاها فأنسته عذابات السكن الجماعي، التي تجعل الإنسان منهكا، يحن إلى خصوصيته المنتهكة. خصوصيته التي تهدرها مشاركة الآخرين في السكن، بثرثراتهم، جرائرهم، إحنهم وعداءاتهم. تهربهم من الفواتير، وغبائنهم وتواكلهم في إنجاز أعمال السكن المشترك، كل واحد منهم ينتظر أن يدخل الآخر المطبخ بدلا عنه. أو ينظف الشقة نيابة عنه. كانوا كطفيليات تبحث عن جسم مضيف، لتبدأ في فرز سمومها وإلتهام الخلايا وتشويهها واحدة تلو الأخرى، كسرطان يقضي على الجسم، قبل أن ينتبه هذا الجسم، لهذه الحالة غير المرئية من التبدد والزوال المتسارعين.

مع ليلى تذوق للقاهرة طعما مختلفا. أصبح يرتاد المنتديات ويشارك فيها. أصبح يستطيع كتابة أفكاره المؤجلة. وترتيب نفسه من جديد.

ثمة طعم جديد، وذائقة جديدة يتشـكلان، فيتذوق كل شيء بطريقة مختلفة، عما كان عليه الحال قبل أن يلتقيها.. إذ اصبح النظام يحكم حياته، والضـوء الذي يشـعر به يغمر دواخله المظلمة من جديـد. يتخلل عتماتها، بؤرها العميقة. تحاصره بأناقتها في كل شيء: في ثيابها، في إنتقائها لثيابه، في ذوقها، في غرفة النوم، في ترتيبها للصالة الصغيرة.

أصـبح يرى ليلى في كل شيء: في أصص الزهر في البلكونة، في الورد الصناعي، في المزهريات التي تملا زوايا الشقة وأركانها..

كان كل شـيء مع ليلى مثاليا تماما، أشـبه بتجريد ذهني من أن يكون علاقـة حقيقية، كائنـة على أرض الواقع. ربما كان هـذا العالم المثالي الذي شـيداه حولهما، لصـرف الأنظار بعيدا عـن دواخلهما المتآكلة، المهشـمة وعتماتها التي يحاولان جاهدين إيصـال النـور إلى أعماقها الداكنة.. ربما، وربمـا كان النظـام الدقيق حولهمـا، بجماله الفائق العذوبـة، ينعكس من داخلهما كظلال لجمالهما الداخلي. جمالهما الخاص الذي تولد من الألم والعـذاب والبوح. هـذا الجمال الذي ينعكس الآن مشـكلاً ظلالاً هادئة، تسـكن نظام الشقة الصـغيرة. جمال ربما ولدته التحولات التي إعترتهما، بفعل طاقة الحب والإصرار على تغيير حياتهما السابقة، والبداية من جديد.

إذن كان جمالهمـا ينعكس في كل شـيء حولهما، ويحوله إلى جمالٍ خالصٍ، مضيئاً، مشرقاً، يغرسه في عالم الأفكار، يحدث فيه تغييرات عميقة تتخللُ الذاكرة، ذاكرة البلدة القديمة وحياة أهلها الأشبه بالغرباء..

– أستاذ عجبين كيف تمكنت من الهرب عبر المطار؟

– بمساعدة شقيقي.

– أين أختفيت قبل أن تتمكن من الهرب ؟

– في البلدة القديمة ذاتها – حيث لا يتوقعون – بيت أحد الأقرباء.

– هل كان هذا القريب بين الذين ساعدوك على الهرب عبر المطار ؟

– لم يساعدني سوى شقيقي.

– متى تزوج والداك ؟

– لا أعرف بالتحديد، إذ لم أكن قد ولدت بعد.

– نحن لا نمزح معك ؟

– عندما تزوجا لم تكن هناك قسائم زواج. كان الناس يتزوجون بالنية فقط دون أوراق وإجراءات، دون تعقيدات وأسئلة.

– اذكر لنا اسـماء اخوتك وتواريخ ميلادهم، الاحياء منهم والأموات بالترتيب من الأكبر إلى الأصغر.

–.....

– محل إقامة والدك ومهنته

– البلدة القديمة. بقال.

– صف لنا الطعام الذي كانوا يطعمونك له في الإعتقال قبل الآخير.

– سندوتش فول، الملح فيه أكثر من الفول.

– ماذا حدث بعد أن توقفوا عن تعذيبك

– كنت أقف في زنزانتي بناء على أوامر أحدهم، فيأتي آخر بعد قليل ليأمرني بالجلوس، بعد أن يشتمني ويسألني لماذا أقف، وعندما أجلس.، ياتي آخر ليأمرني بالوقوف ويشتمني بعد أن يسألني: لماذا جلست وهكذا دواليك لساعات طويلة.. وفي الليل يطرقون على باب زنزانتي بعنف بعد كل عشرة أو سبعة دقائق لمنعي من النوم، وعندما يكفون عن ذلك يشغلون تسجيلا – علمت بعد أن خرجت أنه تسجيل – لصوت معتقلين تحت التعذيب من الواضح أن كلاب شرسة تنقض عليهم وهي تزمجر، وهم يصرخون في رعب مروِّع، بصورة تبعث على الرعب والخوف والارتياع، وتقطع نياط القلوب، إذ تمتزج صرخاتهم وتأوهاتهم مع زمجرة الكلاب الشرسة، ونباحها العدواني وصرخاتهم المرّة.. كان جوا مشحونا بالألم والخوف، العذاب واللوعة، المعطونة في آهات تبدا توهن شيئا فشيئا كحشرجة الإحتضار..

ختم الموظف المقابلة:

– أستاذ عجبين، انتهت كل مقابلاتنا معك، وانا الآن احمل لك أخبارا طيبة – أكد عليها بعربية مكسرة – فقد وافق المدير على إعادة توطينك في كندا. سنقوم بتحويل ملفك إلى منظمة الهجرة الدولية، بعد أن

ترده إلينا سفارة كندا. عليك منذ الآن المتابعة مع منظمة الهجرة والسفارة. انتهى دورنا نحن كأم متحدة.

- شكرا لك.

13

في الليلة التي قرر فيها خشـم الموس الكبـير، وداع هذا العالم المرهق، بعد أن أطمأن على الكرسـني الذي اصبح رجلا قادرا على الإعتماد على نفسه.

خـرج باكرا دون أن يودعه. وقف أمام قبر نـوار في قلب غابته الكبيرة، فتجـددت داخله تلك المشـاهد البعيدة لوداعها الأخـير. والأهالي يهيلون التراب على قبرها، الذي حفروه بعناية تحت شـجرة السـنط. كان خشـم الموس يشـعر لحظتها بقلبه يتحطم، يسـحقه الألم والغم والمشيعون يرددون الآيات حول القبر وأشـعة الشـمس البهية تسقط على الاشجار الخضراء، التي توسطها القبر.

كانت الدموع الساخنة تسيل على خديه، والعصافير في أشجار الغابة، تغـرد خلف طائر الجنة الملون بتراتيل عذبة، تضـفي علـى مناخ الحزن نوعا من السـكينة والصـفاء. شـعر بروح نوار تخرج من قبرها، تطير، تحلق فوق الأشجار الخضراء إلى العالم الفسيح.

رمق خشـم الموس قبر نـوار بنظرة آخيرة، ومضـى عاقـدا العزم على التجوال في البلاد الكبيرة، أبعد بكثير مما وصل إليه من قبل.

لم يكــن يعــرف الأماكن التي يمر بها، ولا الناســ – الذين قابلهم في تجواله – بأشكالهم وألوانهم المختلفة، مأواه حيث تصل به قدماه، وفي معظم الليالي تصــل به قدماه إلى كومة من الحشيش الجاف، في الحقول المكشوفة على السماء الزرقاء، بقمرها الوضاء..

14

في جلســتهم الأثـيرة كالمعتاد وهم يراقبون المارة بــين آن وآخر تعبر على فضاء ذاكرتهم، ذكرياتهم البعيدة..

كان كل واحد منهم يحب واحدة من حســناوات الشــلة، والتي كانت هــي الأخرى مغرمة بــه. لكن لم يجرؤ أحدهم على التصــريح بحبه للآخر، لذلــك كانــوا يقتحمــون عالمه ليشــكون مواجدهــم. كانوا جميعا يخشــون التصريح بمشاعرهم، بسبب ما أضفاه حسنين من قداسة زائفة، على الشلة في سبيل إقناع الجميع بنبالته المزعومة، إلى أن حدث ما ظل عجبين يطلق عليه « الإنفجار الأول»:عندما حاول جاداً تفكيك مفاصــل الشلة، بتحطيم أوهامها التي تختبيء خلفها المشاعر العارمة، تحت غطاء الأصدقاء والصديقات.

جلس إلى كل واحد من أفراد الشــلة – أصــدقاء حســنين – وحاوره مطولا، شــارحا له اســتنتاجاته حول وضــعهم الغريب. هذا الوضــع الذي بمثابة تعويض نفســي، يثبت خلاله حســنين لنفسه ســلطته على الآخرين، على الرغم من أنه في دخيلة نفســه، كان يدرك أنها ســلطة تقوم على الإبتزاز العاطفي. ولم يهدأ بال عجبين إلا بعد أن صرّح كل واحد من أعضاء الشلة، عن طبيعة مشاعره تجاه الآخر، وقتها لم يجد حسنين بدا من الإعتراف بهذا الواقع الجديد، الذي فرض عليه. فحاول أن يمنح نفســه حق رعاية كل علاقة عاطفية بين إثنين، فنجح مع البعض، وفشل مع البعض الآخر..

15

اللحظـة التي شـعر فيها عجبين أن صـداقتهما على مفترق، هي تلك اللحظة التي أكتشـف فيها أن حسـنين، قد أقام صـداقات متينة، مع كل الأشخاص الذين كان يعلم تماما أن عجبين لا يحبهم. ولم يتوقف عند هذا الحـد، بل عمل جاهدا على أن يخلق بينهم وبـين عجبين علاقات متينة.. فكثيرا ما كان يفرضـهم عليه، ويورطه في عالمهم، دون إعطاءه فكرة مسبقة.. هكذا فحسب، يكتشف فجأة أنه تورط معهم..

عندما يسـتعيد عجبين الآن هذه الوقائع والأحداث، يكتشـف مدى الخبـث الذي طـوره حسـنين داخله عبر السـنوات. خبث أشـبه بخبث الفلاحين المصـريين. خبـث كان عجبين غافلا عنه لوقـت طويل. إذ ظل يعتقد على الدوام، أن حسـنين شخص بريء وعفوي «وعلى نياته».. طفل كبير لم تنضـج إدراكاته بعد. ويوما بعد يوم أخذ يسـتوثق، أن استنتاجاته حول الشخصـية الحقيقية لحسنين لم تكن صـائبة. بات يشعر به كممثل محترف، يستطيع إخفاء حقيقة مشـاعره بمهارة، تفوق مهارة أكثر المحتالين إحترافا. فأصبح كلما جلس إليه لا يشعر سوى بالصديد والقيء يسيل من داخله، حتى لو كان لحظتها يلقي نكتة.

وهكذا كف عجبين عن إرتياد الأماكن، التي يتوقع أن يتواجد حسنين

فيها. وصار يتجنبه بإستمرار.

كان وقتها يخطط للهجرة ولا يرغب في أي نوع من المعارك. خاصــة أنه لم يتبق له سوى وقت قليل ويغادر البلاد الكبيرة. يفارق كل هؤلاء الناس، الذين أزمع في داخله نسيانهم.

16

السياسة والشعر هما ما شكلا عالم عجبين خشم الموس، منذ طفولته الباكرة. الشعر وذاكرة البلدة القديمة هما ما ظلا يدفعانه لممارسة السياسة، بطريقة مختلفة عن قوانينها المخاتلة، إذ كان مقيدا بنبل الشعر وتسامي العزلة وزهدها في العابر، الطاريء. وانطوائها على الجوهري الأصيل. ربما لهذا السبب فشل عجبين كسياسي بينما نجح كشاعر. كان لا يستطيع المهادنة، أو إتخاذ مواقف ضعيفة حتى لو أراد، فردود أفعاله دائما حادة، وحتى لو حاول تقديم تنازلات، كان يفشل فيضطر إلى تغيير موقفه.

لم يكن ميالا أبدا للافصاح عن مشاعره تجاه الآخرين، يفضل دائما التعبير عنها عمليا، عكس حسنين الذي كان مغرما بالتعبير عن مشاعره تجاه ما حوله، بمباشرة توحي بالابتزال .إذ يكثر من ترديد عبارات مثل: »أنا أحبك « – «أنت تكرهني»..، إلخ.. بداع ودون داع. كما كان مغرما باتهام الآخرين بالجنون.

كان لسذاجته يتصور الجنون شيئا سهلا، مثل الشجار مع كمساري في أتوبيس، أو بقال، او سائق تاكسي. مثل السهولة التي نشرب بها كوب ماء، أونتبول في الحمام، ونحن نتمنى لو كان هذا البول في وجه أحد الأعداء.

ذاك هو العالم الذي شـكل وجود حسـنين، بكل ما يثيره هذا العالم من تسـاؤلات وأحاسـيس وغثيان. فحسـنين وليد ذاكرة البلـدة القديمة، وموسـيقى الحقيبة والأصدقاء القدامى، يختصـر الحب والصداقة والجنون في مجرد التعبير بالكلام..

أحيانا يشـعر عجبين أنه ورط حسـنين في عالمه المعقد، المتشابك. هذا العالم الذي دفعه لإقامة علاقات متينة مع أشـخاص لا يشـبهون عجبين، لكن تصور أنهم يشـبهونه. أشخاص ليس لديهم شيء يؤمنون به. يجدون متعتهم، غاية متعتهم في الإسـتهزاء بكل شـخص، يتخذ موقفا من عالمهم الوسـخ المتهالك. عالم عاصم وأيمن وعثمان، الذي وسم شخصية حسنين بتشـوهات مزمنة جعلته، يمتهن التربص بعجبين، وإحصاء الشاردة والواردة لإنتقاده، فقط ليثبت لنفسه أنه لم يعد ذلك الطفل، الذي يستحق رعايته، وأنـه قادر على الإسـتمرار في الحياة مـن دونه. فكان عجبين يضـحك في داخله، وهو يراقب هذا الصـراع الذي ينهش دواخل صديقه. يحول آلامه الى ضحكات سـاخرة، تنطوي على مشاعر مبهمة، فمشاعره تجاه حسنين، لم تعد بذات الوضـوح الذي كانت عليه، إلى أن وضـحت تماما إثر انفجار حاد في وجه حسنين، بسبب استمرائه كيل الإتهامات:

– أنـت يا عجبين مفتري، وأناني وحديث نعمة. لقد تغيرت كثيرا ولم تعد أنت أنت.

لم يسـمي عجبين مدلولات العبارات التي أطلقها حسنين في وجهه، فحسـنين بعد أن وجد نفسـه مقصـيا بعيدا عن عالم عجبين.. عن الحياة

الحقيقية.. وفشله المستمر في أن يكون له دور في هذه الحياة، لأن عجبين لم يكن يسمح له بالتدخل في شئوونه الخاصة، الأمر الذي بات يثير حفيظته، بسبب فهمه الخاص للصداقة « أنا لا أحب الناس الذين لديهم أسرار «، إذ في تقديره الخاص أن لا خصوصـية وفواصل أو حدود ومسافات. الصداقة بالنسـبة إليه أشبه بالفوضى والإمتلاك. مزيج من قيم متناقضة ومتعارضة، لا يربط بينها رابط، أو منطق محدد.

17

اللحظة ذاتها تتجدد، وهما على شاطيء « سيدي بشر – الأسكندرية «. اللحظة ذاتها: حلكة الليل وهدير أمواج المتوسط الكبير، وتضاؤلها على الشط، إلى مويجات صغيرة سرعان ما تبدد على الساحل، مخلفة وراءها الزبد، كرغوة الصابون وليلى بين زراعيه، على رمل الشاطيء، كأنها « العينة « بين زراعي الكرسني، وهو يحملها مسرعا إلى البيت الكبير، مخترقا العاصفة التي تشتد حولهما، وجسميهما المبتلين بمياه مقرن النيلين، يتقطر منها البلل، وخشم الموس الكبير يحدق، في ابنه والفتاة فاقدة الوعي بين زراعيه، دون أن يتبادل معه كلمة واحدة.

يدخل الكرسني بالعينة الى غرفته، يتبعه خشم الموس بثياب نوار، ومجمرة لتدفئة جسمها النحيل، دون أن يسأله عنها. اسمها.. من هي.. يخلع ثيابها المبتلة، يلبسها ثياب نوار. كل شيء يتم في صمت.. تبدأ في إستعادة وعيها.. تحاول النهوض، فيعيدها الكرسني إلى رقدتها في السرير الوثير. تنتفض بعنف وتحاول أن تتكلم، فيمنعها بإشارة حاسمة من يده. تفقد وعيها مرة أخرى. يسوي رأسها على وسادة الريش، ويسحب عليها الغطاء.، ويضع مزيدا من الفحم على المجمرة، ويخرج مواربا باب الغرفة.

اللحظة ذاتها في عيون خشم الموس، تتجدد ونوار تخرج من النهر،

حاملـة تمثالها الرخامي الصـغير. تتقدم منه بصـمت، وكلما خطت خطوة تجاهه خطا تجاهها خطوتين، إلى أن وجدا نفسيهما في البيت الكبير، في ذات الغرفة، التي شـهدت تشكل الكرسني، كبذرة في رحم نوار.. بذرة مسقية بالود والوله وانتفاضـات جسـم خشـم الموس الصّـبي. الغرفة ذاتها التي رقدت فيها العينة، بعد سنوات طويلة.

ذات المشهد يتآكله الزمن وتبدلات المكان، يحذف منه تفصيل صغير أو يضـيف إليه تفصـيل آخر. الوجوه تتغير، الزمن يتغير لكن بين الوجوه والزمن، والمـكان ينطوي، ما هو كامن في الدم منذ الجد الأول.، ليعلن عن نفسـه في هذه اللحظة المعطاءة « حيث ينطوي شاطيء البحر المتوسط الآن، على ذاكـرة النيل والمقرن والبلـدة القديمة، وحيث ينطـوي وجدان ليلى، على ذات الإسـتثارة والولع القديم لنوار والعينة، وحيث يعبر خشم الموس والكرسـني، في مجرى الزمن فيضـا من الحـب في دواخل عجبين الحفيد، المسـكون بطاقة هذا الجزء من الحياة والخصب على شاطيء « سيدي بشر « الأسـكنراني الجميل، حيث لليل حلكة مميزة. حلكة تراها في قلب العتمة، على أضواء السفن البعيدة، والفنارات، كأنها مهموسة في هدير الموج.

عـالم مغاير، حميم وغامض، يحـاول عجبين أن يمحو به ترويع الحروب الأهليـة في بلاده الكبيرة: المجاعات، الفقر والتهميش.. هذا الترويع الذي أحتـل جزءاً كبيراً من ذاكرته ووجدانه، يجدد ذكريات المعتقل والتعذيب، والأصـدقاء الذيـن كانـت خياناتهم، أشـد قسـوة وألما من غـدر الحبيب والقريب..

خياناتهم تظل تلاحقك كسهم يتغور في الفؤاد، ويظل متغورا. إن نزعته تموت، وإن تركته تموت.. خياناتهم أشــد الماً وعذاباً من كل شــيء مضى، أو سيأتي ذات يوم..

تنهض الخيانة في التقارير المكتوبة لزوار الفجر، في إستدراجات حسنين التائه له بهدؤ وروية، ليباغته على حين غرة كالعقرب، يلدغه، فتترك اللدغة ســمها: هالة زرقاء في القلــب. هالة كحروق أعقاب الســجائر، على ظهره. ومعصــميه. فينقبض وجدانــه. يهرب إلى طفولته.. الرحــم الذي يحميه.. تســتعيده ذاكرة الكرسني وهو يتشكل في رحم نوار، على أغنياتها العذبة، وهدهداتهــا لــه في المهــد. يغني خلفها طائــر الجنة الملــون، وعرائس النيل وحوريات البحر وأشــجار الغابة و»سنطة» الحديقة الوحيدة. تظل تهدهده. ينكفيء جفناه. وتبدأ أنفاسه في الإنتظام، لتخرج كلماته ناعسة:

- أحبك ليلى..

تهدهده على صــدرها. ليلى حورية المتوســط، صنو نوار والعينة. جرح الذاكرة المتغور عميقا في زبد المويجات المتبددة على رمل سيدي بشر.

نوار قربان البلدة القديمة، تمثال الرخام الجميل، في تلك البلاد البعيدة، التي استحالت الى شيء آخر، أي شيء سوى أنها: وطن.. لمواطنين..

اســتحالت الى متحف كبير. محضــر متحف، لعرضــ البؤس والألم والغدر والخيانة. المشاعر النبيلة المجهضة..

- أحبك ليلى..

تخرج ليلى من قلب هذا الركام كروح هائمة، لتهدهده وتزرع في جفنيه النـوم الهنيء، الذي ظل يفتقـده لوقت طويل.. كالكرسـني أفتقد النوم لوقت طويل، وهو يراقب بيـت العمدة الكبير، يتوقع خروج إبنته الجميلة « العينة» مع خدمها وحشـمها، ويمضي ليسهر الليال الطوال، يخطط للقائها، غارقا في المراسيل، وخطابات الحب اللاهبة، التي لا رد عليها..

مثلما لفت انتباهه بيت العمدة الكبير، منذ أول يوم تحرر فيه من سلطة عالم خشـم الموس، وخرج للتجوال في فضاءات البلدة القديمة.. العينة هي الأخرى كان بيت خشم الموس الكبير، قد لفت انتباهها..

كانا يسألان بفضـول كبير كل من حولهما عن ساكني البيت الآخر، كأن روحا خفية تدفع كليهما لطرح هذه الأسئلة.

تعـرف علـى العينة قبـل أن يلتقيها، مثلمـا عرفته قبـل أن تراه. كان اهتمامهما ببعضـهما البعض يتنامى وأشـجار الأسـئلة تنمو وتزهر. تطرح ثمراتها، لتقود الاجابات الى اسـئلة أخرى، عن الذي أغمد وجهه الغامض في الأحـلام الغامضـة، وذاكرته العميقـة التي لا قرار لهـا، وملامحه غير المرئية، الغائبة في ضباب أرخبيلي داكن..

ملامحه التي شكلها الخيال كيفما يشاء..

كانـت العينة تـراه في أحلامهـا، كفارس فـارع الطـول. قاس الملامح وحنون. يمتطي صهوة جواد أبيض، يختطفها بعد أن ينتصر في مبارزته لحراس دار العمدة، ويمضي بها بعيدا إلى عوالم لم ترها أو تسمع بها من قبل أبدا.

وعندمـا بدأت المكاتيب بينهمـا، يحملها طائر الجنة الملون، اصـبحت تصوغ من كلماته شكلا وسيما وقسماتا مليحة، لحبيب تقلق فحولته منامها.

من هنـاءة الغفـوة على صـدر ليلى، الـذي لم يهده عبـث جلاوزة التعذيب، تخرج مشـاعر اللجؤ، تمزق غشـاء الحميمية والأمان. هذا الرحم الذي أحاطته به ليلى. هذا الرحم الواسـع، يغمد نفسـه فيه الآن هارباً من عذاب الآخرين، أولئك اللاجئين المحزونين، الذين يملأون شوارع القاهرة، يقتاتون الجوع ويعانون التشرد والألم والإنتظار القاتل لإعادة التوطين التي صارت كحلم دونه شوك القتاد.

كانوا جميعهم كالمعتقلين في سـجن كبير، يسـومهم سـجانوهم شتى ألـوان العـذاب والقهر والأذلال والإسـتعلاء، فهم جميعا مثـل كل أبناء البلاد الكبيرة غير مرغوب فيهم هنا، انهم محض أفارقة في نظر المصـريين. مجرد سود أقل مرتبة. وبونقا بونقا وشكلاطة، الى آخر هذه التسميات التي يطلقها عليهم الشـارع العام.. انها القاهرة، حيث يتم تمييز الانسـان باللون والدين. دينك ولونك يحددان انسانيتك. قبولهم لك..

يتفتت الغشـاء الذي صـاغته ليلى، تبدد. فتزول لحظـة الهناء، التي انتزعهـا مـن اعماق ذاكرة مجرى الزمن، منذ خشـم الموس الكبير حتى اللحظة الحاضـرة عند عجبين. على شـاطيء سيدي بشـر الأسكندراني، ترى هل شعر خشم الموس الكبير، بهذا الاحساس المرير من قبل..

هل كان احساسـه بعد تحطم مرآته السـحرية، وتخريب وجدان الناس

ذات الاحســاس، الذي دفعه للهروب ومغادرة البلاد الكبيرة. ترى هل هو الاحساس ذاته الذي دفع خشم الموس الكبير، الى ترك كل شيء ومغادرته البلدة القديمة..

دون أن يلوي على شيء. دون ان يبين له أثر بعد ذلك والى الأبد.

18

الشــوارع والبنايات التي أعتاد عليها، منــذ وطأت أقدامه أرض البلدة الكبيرة مرة أخرى، بعد غربة أمتدت لســنوات طويلة، ما لبثت أن انطفأت فيها الجغرافيا، فعاد خارجا من أنقاض «هويته العابرة» الى هويته الأم. حيث البلــدة القديمة، التي لم تعد هي ذاتهــا. فقد تبدل الناس والمكان، ولم يعد للوجوه القديمة من مكان. مضــت أيام الغربة ببطء، والأشياء ما عادت هي الأشياء، فقد تغير كل شيء. ليس في غيابه فحسب. بل منذ خسر حسنين التائه نهائيا وإلى الأبد. منذ أن اســتوثق أن حسنين مصاب بجملة أمراض، كالغيرة والحسد والحقد.

يتصــارع معها. يحاول أن يتســامى عليهــا عبثا، فعندمــا تتغلب عليه يتحول الى كائن مزعج.

كان حســنين كإبــن لذاكــرة البلدة القديمة، ضــاربة الجــذور في مقرن النيلين، قد نشــأ مدللا، ليس مســئولا عن أي شــيء، فأسرته تتحمل عنه عبء كل شيء، حتى أعباءه الخاصة جدا. ربما لهذا السبب، كان يترفع عن خدمــة الآخرين، ويحرص على أن يقوموا هــم بخدمته، في كثير من الأمور التي يفترض أن ينجزها بنفسه.

ظل عالم حسنين قبل أن يلتقي عجبين، هادئا بمعالمه المحدودة وذكرياته في الطفولة والصبا، مثل كل الذكريات المملة، ليس فيها شيء غير مألوف. عادية تماما، وربما لهذا السبب كانت ذكريات عجبين تدهشه.

فبقدر ما كانت ذكرياته هادئة، كانت ذكريات عجبين مغموسة في الصراع، والغربة وترحال الذاكرة، في أغوار البلدة القديمة. مغموسة في الأسى واللوعة، والمغامرات الخابئة والخائبة، التي كانت تبدو لحسنين خارقة، يتمنى لو كان هو الذي خاضها، اذ يبدو له عجبين كشخصية استثنائية، مدهشة بسلوكها الاسطوري وعالمها الغرائبي، المليء بالتجارب غير المتوقعة.

ربما ذلك ما دفعه بعد وقت طويل، الى نسج الكثير من الاكاذيب عن نضالاته المزعومة، وكيف أنه طورد من أجهزة الأمن، وحوصر من قبل تنظيم السلطة، الذي أحتل البلدة القديمة بكاملها، بحثا عنه، إلى آخره من ترهات وأوهام أغرق نفسه فيها، وصدقها بكثرة التكرار، كانها أحداث حقيقية جرت له، فلم يعد يشعر بأنه يكذب عندما يحكيها ببراءة كأنها أمر هين.

كان الأصدقاء الأربعة لا يزالون يجلسون، أمام الجدار الخارجي للبيت العتيق، في قلب البلدة القديمة، عندما عبر عجبين أمامهم. وقف قبالتهم. حدق فيهم ملياً، ومضى إلى حيث يطيب له الجلوس على المقهى الصغير في السوق الشعبي، الذي نهض منذ سنوات طويلة في هذا المكان: قلب البلدة القديمة..

نظر الأصدقاء الأربعة إليه بحسرة، وهو يعطيهم ظهره ويمضي دون أن

يلتفت إلى الخلف. دون أن يتوقف سوى بين آن وآخر، ليلتقط ورقة أو قطعة صغيرة من الزجاج اللامع على ارض الشارع المعكر بالغبار..

أحمد ضحية

القاهرة – نيوجيرسي

مارس / نوفمبر 2006

رقم الايداع: 2016/698م